Gaylord
PAMPHLET BINDER
Syracuse, N. Y.
Stockton, Calif.

THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
مديرية التأليف والترجمة

ربيع في الزهور

زكريا تامر

السلسلة القصصية

٦

الطبعة الاولى

دمشق

١٩٦٣

وزارة الثقافة والإرشاد القومي

مديرية التأليف والترجمة

ربيع في الدار

زكريا ناصر

الناشر
الفن الحديث الدالي

السلسلة القصصية
٦

956.9
Un27

956.9
S427
6

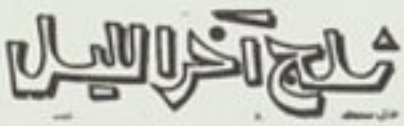
شلوح آخر الليل

ألصق يوسف جبهته بزجاج النافذة المطلة على الطريق . وكان الليل خارج الغرفة وردة سوداء باردة ، وكان ثمة ثلج يتساقط بطيئا عبر فضاء من نور شاحب . وكانت ام يوسف تضع آنئذ ابريق الشاي على المدفأة بينما جلس والده صامتا ، ترين الكآبة على وجهه المتغضن ، ويلتمع في عينيه سخط خفي ، ويداه مرتميتان بوجوم على ركبتيه كصديقين متعبين عجوزين .

وانحنى يوسف ان يعود القط ويتمسح بساقيه فركله بقدمه متأففا .

وانكمش القط متألما ، وقبع قرب المدفأة ، واغمض عينيه بانكسار ، وأخذ يحلم بعثوره على حديقة أسوارها عالية جدا ، وأرضها مغطاة بطبقة من عصافير لا أجنحة لها ، سيختار عصفورا سمينا ، وسيحملق فيه بشراهة فيذعر العصفور ويتراجع باضطراب .

سيقول العصفور بصوت رفيع متقطع : انا عصفور مسكين .

ـ انا جائع .

ـ سأغني لك .

ـ أنا جائع ٠

وسينقض القط على العصفور في وثبة ضارية ، ويغرس أسنانه الصغيرة الحادة في عنقه ممزقا حنجرته الغضة ، وعندئذ سينزف الدم قرمزيا ساخنا ٠

وضغط يوسف جبينه على زجاج النافذة الرطب بينما كان يتكون في مخيلته وجه اخته الهاربة ٠٠ فتاة وديعة ، دائبة الابتسام ٠ وقال لنفسه : سأقتلها حين أعثر عليها ٠٠ سأفصل رأسها عن جسدها ٠

وسمع أباه يقول له : ألم تتعب من الوقوف ؟

فلم يتحرك يوسف ، وظل صامتا ٠ وأسرعت الام الى التدخل قائلة : نسيت ان اخبركما بما رأيت ليلة البارحة ٠٠ رأيتها ٠

ففوجيء يوسف ، واستدار بحركة سريعة ٠ وحين التقت نظرته بوجهها أدرك حالا أنها قد شاهدت مرة اخرى الافعى التي تحيا مختبئة في بيتهم العتيق ذي الجدران الترابية ٠ وتخيل يوسف الافعى : انها سوداء ، ناعمة ، ملساء ، تزحف بسكينة عبر باحة البيت تحت ضوء القمر الذي كان بازغا بالامس ٠

وقالت الام : ما أجملها ! كانت كالملكة ٠

وشعر يوسف ان الافعى ملكة حقيقية عجيبة ، مات كل عبيدها وبقيت تحيا وحيدة في أرض خربة ٠ واستيقظ في اعماقه غضب قديم ، فقال موجها كلامه لأبيه :

ـ ستؤذينا ، يجب ان نتخلص منها ٠

فتألق سرور خفي في عيني الأب وهو يجيب :

– انها تؤذي فقط من يؤذيها .. وقد عاشت في البيت قبل ولادتي ولم تؤذ احدا .

وكان يوسف موقنا بأن الافعى تعلم بانه يكرهها وهي تترقب مقدم لحظة ما ثم ستزحف حاملة اليه الهلاك . وكثيرا ما طالب أباه بالسكن في منزل جديد من اسمنت وحديد وحجر .

وتجسدت في مخيلة يوسف أبنية بيضاء كأنها قصائد من الشعر العذب المفعم بشمس لا تأفل .

وكان الاب يرفض قائلا بعناد : هنا ولدت وهنا سأموت .

وراقب يوسف وجه أبيه بغيظ . وسعل الاب ثم تابع قائلا بسخرية : اعثر عليها اذا استطعت واقتلها .

وقال يوسف لنفسه : سأعثر عليها ولن تفلت مني .

وكان ثمة مقعد فارغ قريب من النافذة ، تأمله يوسف مليا وبحنق .. وكانت اخته اعتادت الجلوس عليه في السهرات .. تضحك وتتحدث وتداعب قطها .. ولكن اين هي الآن ؟

وتاق يوسف الى تدخين سيجارة . وكانت السجائر في جيبه ، ولكنه لم يكن ليجرؤ على التدخين أمام أبيه ، فاتجه نحو باب الغرفة . وبادره والده متسائلا :

– الى أين ؟

فقال يوسف : انا متعب وأريد أن أنام

قال الاب : يا لك من مسكين عملك كثير جدا ..

هل تكسر حجارة في النهار ؟ لماذا تتعب ما دمت لا تعمل شيئا ؟ هل أتعبك التثاؤب ؟ قل لي .. ألم تجد عملا ؟

واعترضت الام قائلة : انه مريض .. انظر اليه .. لكم هو هزيل وأصفر .

واحس يوسف ان اللحظة التي يخشاها موشكة على المجيء .

وصرخ الاب بنزق : أنا لا ألوم أحدا سواك .. أنت التي أفسدت الاولاد .. الابن الشاب يأكل وينام .. والبنت تهرب .. والزوجة تثرثر مع الجارات .. والاب يشتغل كالحمار .

فقالت الام بصوت متوسل : لا تصح هكذا ، سيسمع الجيران صوتك .

ـ سأصيح كما يحلو لي .

وأحنى الاب رأسه ثم أضاف بلهجة أسيانة : آه يا ربي .. ما الذي فعلته حتى تفضحني في آخر عمري .

قالت الام : ألم أقل لك ان تبلغ الشرطة عن اختفائها ؟

ـ كان يجب ان لا تتركيها لوحدها ، ولولا خروجك من البيت وذهابك الى الجيران لما استطاعت الهرب .. لماذا لم تأخذيها معك ؟

ـ كانت المسكينة متعبة بعد أن نظفت البيت كله .

ـ مسكينة ؟ مسكينة تستحق الذبح .. ماذا سنقول لأقاربنا اذا زارونا ولم يجدوها في البيت ؟ هل سنقول لهم : كانت امها عند الجيران فأخذت البنت أكثر ثيابها وهربت ولا نعرف مكانها .

والتفت الاب الى يوسف ، وردد بصرامة : أريد منك أن تبحث عنها ، وتجدها بأي طريقة · اذبحها كالكلبة ·

وتذكر يوسف ايام طفولته ، وكانت الخراف تذبح في صباح ايام الاعياد على عتبات حوانيت الجزارين ·· الخروف يطلق صيحات مذعورة تحت ثقل الجزار ولكنه لا يستطيع التملص ·· وسكين الجزار كبيرة النصل وحادة ·· تخترق عنق الخروف ويتدفق الدم من جرح عميق أحمر ·

وانفجرت الام تبكي ، وهتفت : انها بنتي أنا ·· وانتما الاثنان لم تهتما بها أو بي ·

وفتح يوسف الباب ، وتسلل الى الخارج · وحين أغلق خلفه باب غرفته شعر بطمأنينة غريبة ، وسارع يشعل سيجارة ، ويعب دخانها على مهل ، ويذرع الغرفة بخطى قصيرة مهتاجة وهو ينصت الى وقع حذائه على البلاط ، ثم توقف بعد قليل قرب طاولة خشبية ، ورمقها بحسرة ·· فهنا مكان المذياع الصغير الذي كان يملكه ، وقد أجبره أبوه على بيعه ·

ولقد كان المذياع صديقا وفيا ليوسف ، وها هو بعد فقده شاب بلا موسيقى · وأحس بالبرد يزداد حوله ، فخلع ثيابه ، واطفأ المصباح الكهربائي ثم دس جسده تحت اللحاف مسلما رأسه للوسادة ·

وكان موقنا بأن الافعى لا بد مختبئة في مكان ما في البيت أو تزحف عبر الغرف بهدوء ·

وأطبق يوسف جفنيه ، وكان حنينه الى الموسيقى

ينمو ويتفجر في داخله كغيمة تحولت الى مطر هاطل فوق تراب خشن · واصغى الى موسيقى سحرية قادمة من أعماقه حيث يقبع شيء غامض مرتجف ، يخلق الموسيقى وهو ينتحب ولا يمسح دموعه ·

وشعر يوسف بأنه قد يبكي بعد قليل بشدة ، وانه هو المطر والتراب الجاف في آن واحد · وأحس يوسف بأن ثمة عالما مجهولا · قريبا منه كل القرب ولا يفصله عنه سوى جسر من الزجاج · وقال لنفسه : مريض أنا مريض ·

واندفع يوسف ، واجتاز مسرعا الجسر الزجاجي فاحتضنه برأفة عالم شاسع مبهم ·· سيده الظلام الكثيف ·

وتجسدت في مخيلة يوسف بقايا مدن ·· ابنية متهدمة ·· فهتف بلا صوت : عمري يتبدد ·· أريد عمر آخر بلا أب ·

وتفجر أساه المكبوت : الاشجار نجوم خضراء · قلبي يطرق بابا مغلقا · دموعي اطفال حزن هرم · لمن يشحب وجه الشمس ؟ الليل وسادة تحب المتعبين · دمي ينزف ، يهرقه غياب امرأة نهدها نائم على بساط ازرق ، يحلم بمدن الرجال ·

يوسف يرتجف تحت اللحاف وقد تأكد من انه مريض ·· انه يصطاد نجوما ويقول : ليت الجرح لا يصرخ · ويقول : اشرقي يا شمس الغضب ·

ويأتي الموت متنكرا في ثياب بحار · يوسف يقول له : ليحملني مركبك الى الشاطىء ·

والشاطىء الآخر صوت أخضر ينادي يوسف بكثير من الحنان · ولا يجيب الموت ، ويبحر مركبه ، ويلوح يوسف بيده لمسافرين شاحبي الوجوه ·

وأقبل الناس الذين يحبون الموسيقى ، وكانوا يحملون طبولهم وأبواقهم · وتجولوا في حدائق مهجورة · الليل شعر امرأة · لا لا · الليل أفعى تزحف متغلغلة في صميم العالم ·

ويئن واحد من الرجال الذين يحبون الموسيقى ، ثم يرفع بوقة الى فمه · وتألق معدنه النحاسي لحظة ثم انبعث منه صراخ طويل متحشرج ·· تخلى عن الخجل وناح وكأنه صوت البشر المسحوقين الذين يعيشون بذل فوق الارض الصلبة ·

يوسف الآن سيف وعباءة تلاعبها الريح وجواد يعدو فوق رمال الصحارى ·· يسمع صوت امـــرأة تستغيث ·· اختي تناديني ·

وتمنى يوسف لو تأتي الافعى في تلك اللحظة ، ولا يريد أن تميته بسمها انما ينبغي ان تطوق عنقـه بجسدها البارد ، وتظل تضغط عليـــه حتى يختنق ويكف عن الحركة ·· وعندئذ سينأى عن أبيه وامه واخته والسكين العطشى للدم ·

ولعق يوسف شفتيه اليابستين بلسانه ، ولم يكن يريد الاستسلام للسبات لأنه كان يعلم انه سيشاهد أثناء نومه سبع بقرات عجاف ذات خوار حزين ، ترعى في حقل بلا عشب ، وستكون السماء سقفا صلدا واطئا من الجراد والذباب ·

لن يستسلم يوسف لليأس · سيظل يبحث عن اخته طوال أيام الشتاء متسكعا تحت المطر والثلج غير آبه للريح والصقيع ولكنه لن يتمكن من العثور عليها ، وسيتأمل بأسى الاشجار الجرداء وستكون كالمتسولات · ولن تترك أصابعه مقبض المدية القابعة في جيبه ·

وتمثل يوسف اخته يوم طلبت من أبيه السماح لها بالذهاب الى السينما مع بنات خالتها ، فصفعها الاب بقسوة ، ولن ينسى يوسف نظرة عينيها الذليلتين ونشيجها المكتوم ·

وعندما سيأتي الربيع ويعود للسماء صفاؤها ، وتسطع الشمس دافئة ، وتكتسي الاشجار بأوراق خضراء · ستقوده قدماه الى سوق الخضار ، وهناك سيمشي على مهل منصتا الى أصوات الباعة · وبغتة سيبصر فتاة تحمل في يدها حقيبة من قماش ، وستكون منهمكة في مساومة أحد الباعة · وسيتراجع يوسف مضطربا : انها اختي ·

وستتلمس أصابعه مقبض المدية ، وسيرقب اخته ·· انها امرأة صغيرة متعبة ·· بائسة وسعيدة في وقت واحد · وسيتذكر يوسف يوم كان مريضا ومستلقيا على ظهره ، يئن متوجعا ، وحين فتح عينيه شاهد اخته قربه تبكي بصمت ·

وستسير الاخت وهي تحمل حقيبتها الممتلئة بالخضار ، وسيقترب منها أحد الحمالين عارضا عليها

عليها حمل الحقيبة فترفض الاخت ، وسيقول يوسف لنفسه : سيدة المنزل الصغيرة تريد توفير النقود ٠

وسيتبعها يوسف ، وعندما تصبح في شارع خاو سيدنو منها حتى تلامس كتفه كتفها فتلتفت مستطلعة فتباغت برؤية أخيها ، وتتسمر متجمدة في مكانهـا ، وتفلت اصابعها حقيبة الخضار ، وستنظر اليه بعينين فيهما ذل وأسى وحنان ثم ستمد اليه يدها ، وسيشعر يوسف بأنها ليست اخته وانماهي امرأة صديقة سافرت طويلا ، وها هي الآن تعود مادة اليه يدها لتصافحه ٠ وسيمد يوسف يده بحركة ذاهلة ، ثم سيظلان واقفين دون كلمة ٠ وسيمر شاب ويرمقهما بنظرة خبيثة وكأنها تهتف : ها هما شابان عاشقان ٠ وسينحني يوسف ، ويحمل حقيبة الخضـار ثم سيسألها بصوت خشن : كيف تعيشين ؟

ـ تزوجت من شاب فقير ٠

وستهرب كل الكلمات من يوسف ولكنه سيدرك ما حدث : شاب فقير ، طيب القلب ، وفتاة تريد ان تحيا ٠٠ وأب لن يزوج ابنته من فقير ٠

وسيسيران معا ثم ستقف الاخت عند مدخل بناية وتقول : وصلنا ٠

وسيعرف يوسف انها تسكن في القبو ، وسيضع حقيبة الخضار على الارض ريثما تفتح اخته الباب ثم سيحمل مرة اخرى حقيبة الخضار ، ويدلف الى الداخل ، وستستقبله على الفور رائحة مخلوقين ينامان في سرير واحد ويضحكان ويتخاصمان ولكنهما لا ينامان حزينين ٠

وسيرتمي يوسف على مقعـــد ·· وكم سيكون مريحا · وستتلمس أصابعه ثانية المدية ·· سينهض الآن وينتضي المدية ذات الشفرةالحادة ، وسيقبض على شعر اخته ويطرحها أرضا ويذبحها بينما هي تغمغم بصوت هلع خافت : أخي أخي ·

وسيتذكر يوسف أيام كان واخته صغيرين ·· كان يكبر اخته باعوام قليلة وقد جاءت اليه ذات مرة باكية واخبرته ان ابن الجيران ضربها وقد سارع وقتئذ الى الحارة وضرب ابن الجيران ·

سيقول يوسف للمدية : موتي ·· ظلي بعيـدة عن الدم ·

وستأتي الاخت ، وتقف امامه وقد خلعت معطفها ·· يا للثوب الرائع الذي ترتديه !· ثوب امرأة منزل· ستقول له : كيف حال أمي ؟

وسيظل يوسف يرقبها بصمت ، وستندفع فجأة الى النحيب وهي تتمتم : كل اللوم على أبي · لن أسامحه ·· عذبنا كثيرا ·

لقد عذبنا · لقد عذبنا ·

وسيبعد يوسف يده عن المدية ، ويخرجها مـن جيبه ، ويضعها تحت ذقن اخته ، ويرفع وجهها اليه ، وسيكون مبللا بالدموع فيجففه بمنديله وهو يقول بحنو ورقة :

ـ لا تبكي ·

وربما وثبت على حين غـرة ، وقبلت وجنته ··

وعندئذ ستمتلىء شراييته باغنية عارمة للحبور .. وقد يقول لها : هيا هيا .. ابتسمي .

وعندما يعود الى البيت سيجد الافعى مرتمية في الباحة ميتة باردة . وسيتطلع بانتصار الى أبيه المكتئب .

واجتاح يوسف حنو عجيب جارف وهو متمدد على الفراش وود لو ينهض ويضيء المصباح الكهربائي ويحدق الى المرآة .

وأقبل الرجال الذين يحبون الموسيقى وكانوا لا يحملون طبولا وأبواقا .. غير أن أصواتهم الشادية كانت كسهل أخضر لا نهائي .

واستسلم يوسف للسبات العميق بينما كان يتصاعد من باحة البيت مواء قط حزين وكأنه نداء ضارع يناشد مخلوقا ما بالعودة . وكان الثلج خارج الغرفة مايزال يتساقط مانحا الابنية والناس والشوارع قناعا أبيض .

الباب القديم

غادر الحانة جندي ذو شعر أشقر ، مخلفا وراءه ضجيج رجال سكارى ، وجوههم سمراء ، وأعينهم وديعة ، غير أنها تبدلت لحظة لمحته ، واتقدت فيها الكراهية والصرامة لأنه واحد من جنود غرباء غزوا مدينة لم يولدوا فيها .

وتلقفه صمت الشارع الذي كان آنئذ خاويا فعندما يشارف الليل على الانتصاف ، تستسلم المدينة للسبات ، فتطفأ أنوار النوافذ ، وتقفر الطرقات وتمسي ملكا للمتسكعين والمقامرين والسكارى العائدين الى منازلهم بخطى متعبة .

وسار الجندي الغريب بمحاذاة سور النهر ، مترنحا قليلا . وأنعشه بعض الشيء الهواء الخفيف الذي كان يهب محملا برائحة الياسمين والليمون والآس . وكان خرير المياه المترقرقة بهدوء ينساب الى سمعه وكأنه شكوى حزينة خافتة .

وبلغ ساحة المدينة الرئيسية ، وهناك وقف هنيهات حائرا ثم سلك طريقا فرعية ، غرست في وجه أرضها الحجرية سكة الترام ، وتناثرت على جانبيها

دكاكين ، أبوابها حديدية مقفلة ، وأعمدة خشبيةمتباعدة تتدلى منها مصابيح كهربائية ، بخيلة الضوء ٠

وتعمد الجنديالسير بينقضيبي السكة الحديديين ٠٠ انه الآن ترام ٠ وسرى اليه قليل من الفرح ٠٠ انه ترام يتهادى بطيء السير ٠ وتذكر أيام كان صغير السن ، يركب القطار ويقف قرب احدى نوافذه يرقب الحقول الخضراء والقرى المتعاقبة بسرعة تحت نظراته بينما الهواء يبعثر خصلات شعره الأصفر الناعم على جبينه ٠

انه الآن ترام سريع ٠٠ ثمل ٠ وأخذ الجندي يركض برتابة بين قضيبي السكة مترنحا وقد تزايد مرحه ٠ وقلد الترام مطلقا من فمه صوتا حاد النبرة : تم تم تم ٠

وتابع عدوه حتى تعب ، وعندئذ توقف لاهثا ، مجيلا أنظاره فيما حوله ٠ وكان الى يمينه درب مظلم ، يلوح في آخره مصباح كهربائي وحيد ٠

وكانت التعليمات تحذر الجنود الغرباء من السير فرادي ليلا في أزقة المدينة ٠

وأحس الجندي أن هناك في الدرب خطرا غامضا يربض منتظرا مقدمه ٠ وحفزه شوق مبهم لأن يجابه الخطر ويتحداه ٠ فسار في الدرب الخاوي مغنيا بصوت أجش متقطع حتى وصل الى نهاية الدرب حيث المصباح الكهربائي ٠ وكان هناك باب كبير من أبواب المدينة ٠٠ باب قديم كان يغلق فيما مضى من الليالي ليحميالمدينة من أعدائها ٠

واستند الجندي الى الباب ، وخيل اليه أن يسمع صليل سيوف وصهيل جياد وأصواتا تتعالى مرددة : الله أكبر ·

وانتابه بغتة خوف غريب · وسمع وقع أقدام ، فارتعش متوجسا ، واشتد التصاق ظهره بالباب · وبدا رجل وامرأة يسيران معا ويتحدثان بالفة · وكانت المرأة ترتدي ملاءة سوداء · واستطاع الجندي أن يلمح وجهها قبل أن تسدل عليه نقابها القاتم بحركة سريعة من يدها ، وكان وجها أبيض فتيا تألق عبر العتمة بكثير من العذوبة والفتنة ·

وتضاعفت وحشة الجندي الغريب ، وتفاقم سخطه على شيء ما · ووجد نفسه يتحرك دون وعي ، ويعترض طريق الرجل والمرأة ، تسيطر عليه رغبة جارفة في رؤية وجه المرأة عن قرب وبلا نقاب ·

وأطلقت المرأة صيحة ذعر خافتة ، ووقفت خلف الرجل محتمية به متمسكة بخاصرتيه ·

وتقدم الجندي مادا يديه الى الأمام كأعمى ، وتمايل مترنحا محاولا الامساك بالمرأة ولكن الرجل صده بيديه ، ودفعه في صدره دفعة قوية ، أجبرته على التقهقر الى الخلف بينما ولولت المرأة بصوت حاد ، فتسمر الجندي في مكانه حائرا ، مرتبكا ، شديد الحنق · وتناهى الى مسمعه وقع أقدام سريعة ، وما لبث أن أقبل ثلاثة رجال ، يرتدون الشراويل السوداء ، ويضعون على رؤوسهم طرابيش حمراء ، وتحلقوا فورا حول المرأة ورجلها وقال أحدهم للمرأة :

ـ لا تخافي يا أختي لا تخافي ٠

ووقف الرجال الأربعة قبالة الجندي متحفزين ، وساد صمت عجيب ٠ وسمع بوضوح هدير النهر الذي كان يتابع رحلته من أول المدينة حتى آخرها ٠

وشعر الجندي بأن ثمة خطرا مميتا يهدده فمد يده الى وسطه ، وحاول اخراج مسدسه من مغلفه الجلدي ٠ فانقض عليه الرجال الأربعة ، وتخاطفته أيديهم ، وطرحته أرضا ، وفتح الجندي فمه ، وأراد الاستغاثة غير أن خنجرا صلب النصل ضرب عنقه في تلك اللحظة فاضمحل الصراخ ولم يفلت منه سوى شهقة ضئيلة ممتزجة بحروف كلمة ما ٠

وانحنى الرجال الأربعة ، وحملوا جثة الجندي ، والقوها في النهر القريب المظلم ٠ وصعد صوت سقوطها في الماء كاستغاثة لن يسمعها أحد ، ثم هيمن السكون لحظات ، وما لبث أن هزمه وقع أقدام تركض مبتعدة عن دماء لطخت رقعة أرض قريبة من باب عتيق كبير ٠ وكان الباب فيما مضى قسما من سور حجري شاهق يطوق منازل المدينة ويحميها من الأعداء ، ولقد فتح الباب مرات عديدة ، وتدفق منه الرجال والخيول والسيوف الفولاذية ٠٠ غير أن السور تهدم الآن ، ولم يبق منه سوى أطلال مبعثرة ، وظل الباب مفتوحا ٠

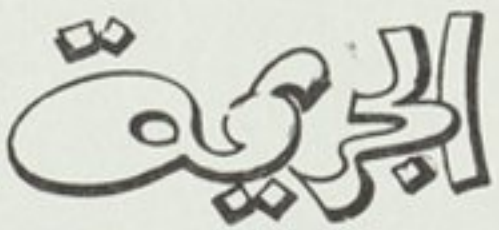
الجريمة

كان سليمان الحلبي يمشي بخطى متئدة مبتهجا بالهواء الذي يهب فيما حوله مسقطا الاوراق الصفراء من الاشجار المنتصبة على جانبي الشارع · وكانت يداه قابعتين في جيبي بنطاله كطفلين نائمين · وحين توقف لحظة عن السير ريثما يشعل سيجارة ، دنا منه رجلان ، وجهاهما متجهمان ، وطلبا منه هويته بلهجة صارمة · وارتبك اذ عرف مهنتهما · وقد كانا طويلي القامة ، قسمات وجهيهما متشابهة الى حد عجيب · وأعاد الرجلان الى سليمان أوراق هويته ثم طلبا منه مرافقتهما ، فأطاعهما دون تفكير ، وسار وهو يقول لنفسه : لا بد ان ثمة سوء تفاهم ·

واقتاده الرجلان الى مخفر غير بعيد · وأدخلاه الى غرفة لها ثلاث نوافذ مفتوحة للشمس والهواء والسماء · وكان يجلس في صدر الغرفة ، رجل ذو شارب سوداء ، امامه مكتب حديدي ، تكومت على سطحه اكداس من الورق الابيض ·

وقال سليمان لنفسه : هذا رجل اسود ·

وقال الرجل الاسود متسائلا : هل أنت سليمان الحلبي ؟

فأحنى سليمان رأســـه بالايجاب دون ان يتفوه بكلمة ، وتناول الرجل الاسود ورقة بيضاء موضوعة على المكتب وطفق يقرأ برتابة وكسل :

« في ليلة السادس من حزيران شاهد سليمان الحلبي حلما قتل فيه الجنرال كليبر »

وتوقف الرجل الاسود عن القــراءة ، وتطلع الى سليمان الحلبي بعينين صارمتين بينما تحول الرجلان الى تمثالين من حجر ، متسمرين قرب احدى النوافذ ، وكانت المدينة خلف النافذة · وتساءل الرجل الاسود مخاطبا سليمان :

ـ هل هذا صحيح ؟

فغمغم سليمان الحلبي مستنكرا :

ـ لا لا · أنا لا أعرف الجنرال كليبر ·

فالتفت الرجل الاسود نحو الرجلين ، وقال لهما :

ـ احضرا الشهود ·

ولم يتحركا غير ان باب الغرفة فتح بعد لحظات ، ودلف الى الداخل ثلاثــة أشــخاص ، ثيــابهم معفــرة بالتراب ، ووجوههم صفراء كأن اصحابها عاشوا مئات السنين في قبور تمقت الشمس · وعرفهم سليمان عــلى الفور وكانوا رجلا هرما وامرأة كهلة وفتاة في مقتبل العمـــر ·

وقال الرجل الاسود : ليتقدم الشاهد الاول ·

وابتعد الهرم منفصلا عن المرأة الكهلة والفتاة ، واقترب من مكتب الرجل الاسود ، ووقف امامه محني الظهر ، وقال بصوت كأنه منبعث من أسطوانة عتيقة تدور بتثاقل تحت ذراع الحاكي :

ـ في ليلة السادس من حزيران شاهدت سليمان الحلبي يقتل الجنرال كليبر ٠

فقاطعه سليمان هاتفا : ابي ٠

فلم يأبه الهرم له ، وتابع كلامه قائلا :

ـ ابصرته يطلق من مسدس ضخم سبع رصاصات اخترقت جسد الجنرال وانبثق الدم من سبعة ثقوب ٠ وكان الحزن في تلك اللحظة فارسا يمتطي صهوة جواد غير مروض ، وقد وطأت سنابكه لحم سليمان بينما غرس الفارس سيفه في القلب تماما ، ولكن سليمان لم يمت انما سمع الرجل الاسود يقول :

ـ الشاهد الثاني :

وتقدمت المرأة الكهلة ، ووقفت بجانب الرجل الهرم وقالت :

ـ رأيته يقتل الجنرال وكان يحمل فأسا ، وقد رفعها الى أعلى ، وأهوى بها بكل قوته فشطر الرأس الى قطعتين ، وسقطت الجثة قربي ، واستطعت رؤية النخاع ممزقا خارج الجمجمة المهشمة ٠

وأشارت نحو سليمان الحلبي بأصبع لا ترتجف ، وقالت :

ـ هذا هو القاتل ٠

فتمتم سليمان الحلبي بحسرة : امي امي ·

فرمقته الكهلة بقسوة ، وقالت له :

ـ امك امرأة واحدة فقط ·

وتذكر سليمان يوم كان صغير السن ، يلعب في الزقاق ، ملطخا ثيابه بالطين ، فوقفت أمه على عتبة باب البيت ، وكشفت عن صدرها الشديد البياض ، وقالت له منادية بحنو : تعال تعال ·

وقال الرجل الاسود : الشاهد الثالث ·

وتطلع سليمان الحلبي الى الفتاة بنظرات اسيانة · ولم تتحرك الفتاة ، فدمدم الرجل الاسود بغضب :

ـ الشاهد الثالث ·· ليتقدم ·

وظلت الفتاة متجمدة في مكانها غير انهـــا بدأت بالكلام قائلة :

ـ رأيته راكبا سيارة ، دهست الجنرال ، ومرت فوقه عدة مرات حتى تحول الى لحم لا شكل له ·

وصاح سليمان الحلبي :

ـ ماذا حدث يا اختي ؟ ألم اتركك في البيت وقد طلبت مني ان اشتري لك مشطا ؟

واخرج يده من جيبه حاملة مشطا أسود اللون · وقال الرجل الاسود :

ـ لينصرف الشهود ·

واشار بيده بحركة ضجرة الى الشهود الثـلاثة فتجمعوا في الحال متلاصقين في كتلة واحدة ، واتجهوا نحو الباب ، وما لبثوا ان غادروا الغرفة ·

وضع الرجل الاسود سيجارة بين شفتيه ، وحين رفع يده نحو السيجارة حاملة عود الثقاب المشتعل ، لاحظ سليمان ان يد الرجل الاسود غريبة فجلدها كثير التجاعيد فكأنه جلد سرطان ميت ، ظل زمنا مديدا تحت شمس قاسية ٠

ونفث الرجل الاسود دخان سيجارته ، وتابعه بنظراته بينما كان يتلوى صاعدا في جو الغرفة ثم يتلاشى بتكاسل ، وقال لسليمان :

ـ هل سمعت ما قيل ؟ ان الادلة على جريمتك ثابتة ٠

ـ لم اعترف بشيء ٠

ـ اعترافك ليس مهما ٠ لقد اعترف غيرك بذنبك٠

ـ انا بريء ٠

فتجهم وجه الرجل الاسود ، وقال بصوت بارد وقاس :

ـ لماذا ولدت ما دمت بريئا ؟ جئت الى هذا العالم كي تهلك ٠ وستهلك دون احتجاج ٠ أنت مجرم ، وكنا نراقبك منذ أمد طويل فالناس المشبوهون نعرفهم بسرعة ولا يستطيعون خداعنا ٠

وتناول الرجل الاسود اوراقا بيضاء من على سطح المكتب ، واخذ يقرأ ما كتب فيها :

« في الثالث من نيسان في الساعة الحادية عشرة وثلاث دقائق تطلع سليمان الحلبي الى القمر ، وقال لنفسه : القمر سعيد لأنه لا يعيش في مدينة حاكمها الجنرال كليبر » ٠

وتألق القمر في مخيلة سليمان الحلبي ، وكان قمرا تهرول نحوه سحب قرمزية .

« في يوم الحادي عشر من مايس في الساعة الثامنة صباحا فتح سليمان الحلبي أبواب اقفاصه وأطلق سراح عصافيره » .

وتذكر سليمان رغبة في البكاء اجتاحته بينما كانت العصافير في بدء انطلاقها عبر الفضاء الازرق ترفرف بأجنحتها بارتباك واضطراب .

« وفي الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الثاني من حزيران خطر في ذهن سليمان الحلبي ان العالم سيكون سعيدا لو هلك بعض الاشخاص » .

ورمى الرجل الاسود الاوراق على المكتب بحركة ساخطة ، وقال :

ـ ألم أقل لك ان امثالك لا يستطيعون خداعنا ؟

وظل سليمان صامتا وقد استغرب ان ينمو في اعماقه شعور حقيقي بالذنب ولكنه كان في الوقت نفسه شديد الاقتناع ببراءته .

وابتسم الرجل الاسود ، ولعق بلسانه شفته السفلى وقال :

ـ ستعدم في الساعة السادسة .

فالقى سليمان نظرة سريعة على ساعته فالفاها توشك ان تصبح السادسة ، فانتابه الهلع ، ورفض تصديق ما حدث حوله ، واعتبره مجرد حلم سيصحو منه بعد لحظات على هزة من يد امه وسيسمع صوتها .

وقال الرجل الاسود بتشف : ستعدم .

ـ ألن أحاكم ؟

فضحك الرجل الاسود ، وقال :

ـ انتهت المحاكمة . انا القاضي .

وتناهى الى سمع سليمان صفير قطار ، لا بد ان القطـار يهدر الآن مارا تحت الجسر ، قاذفا دخانه في سحابة صغيرة لن تعيش طويلا وستضمحل اثر ابتعاد القطار .

ـ هل سأموت شنقا ؟

ـ لا .

ـ هل سيطلق النار علي ؟

ـ لا .

ـ هل سأحرق ؟

ـ لا .

ـ هل سأدفن حيا في التراب ؟

ـ لا .

وأشار الى الرجلين قائلا :

ـ هيا .. نفذا الحكم بالاعدام .

الساعة الآن هي السادسـة تماما . والمدينـة مستسلمة بفتور لضياء الشمس الآفلة ، وكانت كامرأة ترغب في النوم قليلا بعد أن أنهكها العمل لأجل اولادها .

وعري سليمان الحلبي من ملابسه كلها ، ولم يخجل من وقوفه عاريا عريا كاملا أمام اعين الرجـال الثلاثة ، وكانت السيارات تعبر الشوارع وهي تزعق بأبواقها عند المنعطفات . واخرج الرجلان من خزانة

خشبية مدية كبيرة ، ثم القيا سليمان على الارض ، ولم يحاول المقاومة ٠

وكان بجانب الرجل الاسود ، منضدة قصيرة القوائم ، ملتصقة بالجدار ، يقبع فوقها مذياع صغير ، مد اليه الرجل الاسود يده ٠ وبعد قليل انسابت منه اغنية لامرأة ، صوتها مفعم بالعذوبة والشجن ، ويتلاقى فيه الريح والمطر والحنان العارم ٠

وانصت الرجلان قليلا للاغنية ثم تحولا الى جلادين ، وبترا اصابع اليد اليمنى بالمدية ، فصرخ سليمان متألما ، وتدفق الدم ٠ خمس اصابع كانت ملكا لسليمان الحلبي ، وقد صافحت الاصدقاء ولمست باشتهاء لحم النساء وكان باستطاعتها في لحظة غضب خنق مخلوق ما ٠

وقال الرجل الجلاد لزميله : يا لها من اغنية ٠ ماذا تغديت ؟

فأجاب الرجل الآخر :

ـ حساء وقليلا من الخبز ٠ اسناني تؤلمني ٠

ـ مسكين ٠

واشعل الرجل الاسود سيجارة اخرى ، وتركها معلقة بين شفتيه لتحترق على مهل ٠

وقطع ساعد سليمان ، فتأوه وأطلق صرخة حيوان ، صرخة طويلة مبحوحة ٠ ولقد كان سليمان يحلم بأن تنام الفتاة التي سيحبها على ساعده لا على وسادة محشوة بالصوف او القطن ٠

وقال احد الرجلين بينما كانت اصابعه تلتف حول مقبض المدية وكانها تتوق لأن تصير قطعة منها :

ـ ليلة الامس شاهدت فيلما وكان سخيفا ٠

ـ كل الافلام سخيفة في هذا الاسبوع ٠

وكانت اغنية المذياع تصعد وتبوح بالعذاب المر الذي يبقي اثر اندثار الحب ٠

واضمحل مرفق سليمان ٠ وكان مرفقا يتكيء على حواجز الانهر ومناضد المقاهي ، ويلكز الاصدقاء ٠

وجثا احد الرجلين على ركبتيه ، وبتر الذراع اليمنى كلها بحركة سريعة بينما كان الرجل الثاني يمسك بسليمان لمنعه من الحركة ، ولم يحاول سليمان الحلبي المقاومة انما كان ينتفض كلما مست المدية لحمه ، ويتلوى على الارض الناعمة الملساء بينما الدم يتابع تساقطه ذا الايقاع الكئيب ٠

وفتحت دور السينما ابوابها ، وغادرها روادها بخطى متثاقلة ٠ وبترت ذراع سليمان اليسرى ٠ ولو كان سليمان الآن متسولا يمشي في الشوارع لاستدر الشفقة ولانهمرت النقود عليه فهو بلا ذراعين ، ولن يستطيع معانقة امرأة ، واذا جاع فمن سيضع اللقمة في فمه ؟

وكان الرجل الاسود يبتسم منتشيا بالاغنية المنبعثة من المذياع ٠ وتابع الرجلان عملهما ، وابتدأ جسد سليمان الحلبي ينقرض متضائلا رويدا رويدا ، وكانت الاعضاء المقطوعة تلقى جانبا ٠ وكان الناس في الشوارع يسيرون على الارصفة ، وبعضهم يقف قليلا امام واجهات المكتبات متطلعا الى عناوين الكتب والجرائد ٠ وكانت اصوات بائعي اوراق اليانصيب

تتصاعد مطاردة المارة بالحاح : ستربح مئة الف ليرة ٠ وكانت الباصات تواظب على المسير متوقفة بين الحين والحين في امكنة معينة ٠

وقال الرجل الاسود مخاطبا الرجلين :

ـ لننته بسرعة ٠ لدي موعد ٠

وتخيل الرجل الاسود بيته ٠ لا بد ان ضيوفه ينتظرون مقدمه ٠ ولا بد ان زوجته ترحب بهم ، وتقدم لهم فناجين القهوة ٠ وكانت زوجته جميلة ، ويشعر الآن بأنه يحبها بضراوة ٠

وكان الرجلان في تلك اللحظة متغضني الجبين ، ويداهما ملوثتين بالدم ٠

وقال الرجل الممسك بالمدية لزميله :

ـ الى اين تنوي الذهاب بعد العمل ؟

ـ الى المقهى ٠

ـ انا سأذهب الى البيت ، سأقرأ قليلا من الشعر ثم أنام ٠

ووضع حد المدية على عنق سليمان الحلبي ، واغمض سليمان عينيه بينما كان يحس بنصل المدية يلامس حنجرته موشكا على ذبحها ، وشاهد نجوما تبزغ وكأنها عصافير ميتة ٠

وجمع الرجل الجلاد قوته ، وضغط على المدية ، فاخترقت اللحم والعظم اللدن ، وفصلت الرأس الذي تدحرج مبتعدا عن قطعة اللحم الباقية ، وكانت قلبا وكتفين ٠ وظلت عينا سليمان الحلبي مفتوحتين ، تطل منهما نظرة بلهاء ٠

ونهض الرجل الاسـود ووضع في جيبه علبـة السجائر ثم سار متجها نحو باب الغرفة ، وعندما امسك بمقبض الباب التفت نحو الرجلين وقال لهما :

ـ نظفا الغرفة قبل ذهابكما ٠

وعندئذ تذمر الرجلان بأصوات مرتفعة ٠

شمس صغيرة

كان أبو فهد عـائدا الى البيت ، يمشي بخطى متباطئة ، مترنحا قليلا عبر أزقـــة ضيقة متعرجة ، تضيئها مصابيح صفراء متناثرة متباعدة ٠

وضايق أبا فهد الصمت المهيمن فيما حوله ، فبدأ يغني بصوت خفيض مترنما :

مسكين وحالي عدم

وكان الليل اوشك ان ينتصف ٠ وازداد ابو فهد غبطة ، وكان قد شرب ثلاثة أقداح من العرق ، وردد ثانية منتشيا :

مسكين وحالي عدم

وخيل اليه ان صوته الخشن مفعم بعذوبة فائقة ، فقال لنفسه بصوت مرتفع : انا مطرب ٠

وتخيل ناسا ذوي أفواه مفتوحـــة ، يلوحون بأيديهم ويهتفون ويصفقون ٠ فضحك طويلا ، ثم أمال طربوشه الاحمر الى الخلف قليلا ٠ وعاد يغني ببهجة :

مسكين وحالي عدم

وكان يرتدي شروالا رمـــادي اللون ، ويحيط خصره بحزام أصفر عتيق ٠ وعندما وصل الى تحت

القنطرة حيث الظلمة أقوى من النور ، بوغت برؤيـــة خروف صغير اسود ، يقف لصق الحائط ، ففتح فمه مدهوشا ، وقال لنفسه : انا لست سكرانا • انظـر جيدا يا رجل • ماذا ترى ؟ هذا خروف • اين صاحبه ؟

وتطلع حوله فلم يجد أحدا ، وكان الزقاق مقفرا تماما • ثم حدق الى الخروف وقال لنفسه : هل انا سكران ؟

وضحك ضحكة خافتة ثم قال لنفسه : الله كريم ، لقد عرف أن أبا فهد وأم فهد لم يأكلا لحما منذ اسبوع• واقترب أبو فهد من الخروف ، وحاول اجباره على المسير بدفعه الى الامام غير انه رفض التحرك ، فأمسك أبو فهد بقرنيه الصغيرين ، وجره منهما ، ولكن الخروف ظل متجمدا لصق الحائط • فرمقه أبو فهد بغيظ ثم قال له :

– سأحملك وأحمل أيضا والدك وامك •

وحمل ابو فهد الخروف ، ورفعه ووضعه على ظهره ممسكا قائمتيه الاماميتين بيديه ، ثم تابع مسيره معاودا الغناء ، وقد تضاعف فرحه ونشوته • ولكنه بعد قليل كف عن الغناء اذ احس ان الخروف يزداد ثقلا وطولا • وسمع على حين غرة صوتا يقول : اتركني •

فقطب أبو فهد جبينه ، وقال لنفسه : لعن الله السكر •

وبعد لحظات سمع الصوت نفسه يقول : اتركني ، انا لست خروفا •

فارتعد أبو فهد ، ودفعه رعبه للتشبث بالخروف.
وتوقف عن السير . وقال الصوت مرة اخرى :
ـ انا ابن ملك الجان . اتركني وسأعطيك ماتريد.
فلم يجب ابو فهد ، انما استأنف السير بخطى متعجلة ، فقال الصوت :
ـ سأعطيك سبع جرار ملآى بالذهب .
وخيل لأبي فهد انه يسمع رنين قطع ذهبيـــة تتساقط من مكان ما قريب ، وترتطم بالارض .
فأفلت الخروف ، واستدار وهو يوشك ان يهتف :
هات
ووجد نفسه وحيدا في الزقاق الضيق الطويل . ولم يعثر على الخروف ، وبقي متسمرا في مكانه هنيهات مرعوبا ثم تابع المسير مهرولا . وحين وصل الى البيت أيقظ زوجته ام فهد من نومها ، وأخبرها بما حدث ، فقالت :
ـ نم انت سكران .
ـ لم اشرب سوى ثلاثة اقداح .
ـ انت تدوخ من قدح واحد .
فشعر أبو فهد أنه قد أهين ، فأجاب بتحد :
ـ انا لا أدوخ اذا شربت برميلا من العرق .
فلم تفه ام فهد بكلمة ، وراحت تتذكر الحكايات التي سمعتها وهي طفلة عن الجان ولهوهم .
وخلع أبو فهد ثيابه ، واطفأ المصباح الكهـربائي ثم تمدد على الفراش بجانب زوجته ، وسحب اللحاف حتى ذقنه .

وقالت ام فهد فجأة :

ـ كان عليك ان لا تتركـــه قبل ان يعطيـك الذهب سلفا ٠

فلم يجب أبو فهد ، واردفت امفهد قائلةبحماس :

ـ اذهب غدا ، وامسكه ولا تتركه ٠

فتثاءب ابو فهد متعبا حزينا ، وقال باعياء :

ـ وكيف سأجده ؟

ـ ستجده حتما تحت القنطرة ٠ احضره الى البيت ولن نتركه الا بعد ان يعطينا الذهب ٠

ـ لن أجده ٠

ـ الجان يعيشون في النهار تحت الارض ٠ وعندما يأتي الليل يصعدون الى سطح الارض ويلهون حتى يقبل الفجر ٠ واذا احبوا مكانا معينا ترددوا اليـــه باستمرار ٠ ستجد الخروف تحت القنطرة ٠

ومد ابو فهد يده الى صدرها ودسها بين ثدييها ، وتركها هناك دون حركة ٠ وقال :

ـ سنصبح اغنياء ٠

ـ سنشتري بيتا ٠

ـ بيتا له جنينة ٠

ـ وسنشتري راديو ٠

ـ راديو كبير ٠

ـ وغسالة ٠

ـ غسالة ٠

ـ لن نأكل برغلا ٠

ـ سنأكل خبزا ابيض ٠

فضحكت ام فهدكطفلة بينماكانابوفهد يتابعقائلا:

ـ سأشتري لك ثوبا احمر ٠

وهمست ام فهد بلهجة عاتبة : أثوبا واحدا فقط ؟

ـ سأشتري لك مائة ثوب ٠

وصمت ابو فهد لحظات ثم قال متسائلا :

ـ متى ستلدين ؟

ـ بعد ثلاثة اشهر ٠

ـ سيكون صبيا ٠

ـ لن يتعذب مثلنا ٠

ـ لن يجوع ٠

ـ ستكون ملابسه نظيفة وجميلة ٠

ـ لن يبحث عن عمل ٠

ـ سيتعلم في المدارس ٠

ـ لن يطالبه صاحب البيت بالاجرة ٠

ـ سيكون طبيبا حين يكبر ٠

ـ اريد ان يكون محاميا ٠

ـ سنسأله : اتريد ان تصير محاميا او طبيبا ٠

والتصقت به بحنو ، واردفت متسائلة بلهجة ماكرة :

ـ الن تتزوج مرة ثانية ؟

فعض اذنها عضة خفيفة ، وقال :

ـ لماذا اتزوج ؟ أنت أحسن نساء الارض ٠

ولاذا بالصمت ، يغمرهما فرح كبير هادىء ،

ولكن أبا فهد أقدم بعد قليل على ابعاد اللحاف عن جسمه بحركة مباغتة ، فسألته ام فهد :

ـ ما بك ؟

ـ سأذهب الآن ٠

ـ الى أين ؟

ـ سأجيء بالخروف ٠

ـ انتظر حتى ليلة الغد ، نم الآن ٠

وترك الفراش بعجلة ، واضاء المصباح الكهربائي المتدلي من السقف ، وطفق يرتدي ملابسه ٠

ـ قد لا تجده ٠

ـ سأجده ٠

فقالت ام فهد وهي تساعده على لف خصره بالحزام الاصفر :

ـ اياك ان تتركه ٠

وأحس أبو فهد انه مقدم على اقتحام مخاطرة ما ٠ وهو سيكون بحاجة لخنجره ، وكان خنجرا محدودب النصل ذا لمعة كامدة ٠

وغادر البيت ، وانطلق مسرعا حتى وصل الى تحت القنطرة ٠ وغمرته الخيبة اذ لم يعثر على الخروف٠ وكان الزقاق خاويا ، ونوافذ البيوت المتناثرة على الجانبين مطفأة الانوار ٠

فوقف ابو فهد منتظرا دون حركة ، مسندا ظهره الى الحائط ٠ وتناهى الى سمعه بعد قليل ضجة تقترب ، وما لبث ان بدا رجل سكران يترنح مرتطما بجداري

الزقاق بينما كان يهتف بصوت ممطوط :

ـ هيه ·· انا رجل ·

وحين اقترب من ابي فهد توقف عن السير ، وفتح عينيه محملقا بتعجب ودهشة · وقال بصوت متعثر فـــرح :

ـ ماذا تفعل هنا ؟

ـ امش ·

فقطب السكران جبينه مفكرا ثم تهلل وجهـه فرحا وقال :

ـ انا والله احب النساء أيضا ، هل تنتظر ان ينام الزوج وتفتح لك المرأة الباب ·

وتضايق أبو فهد ، وأحس بالاستياء ينمو في داخله بينما تابع السكران كلامه قائلا :

ـ هل المرأة جميلة ؟

فقال أبو فهد بحنق : اي امرأة ؟

ـ المرأة التي تنتظرها ·

ـ امش ·

ـ ساكون شريكك ·

واشتد غضب ابي فهد ، فقد كان يخشى ان لايظهر الخروف لان السكران موجود فقال بشراسة :

ـ امش في طريقك والا كسرت رأسك ·

فتجشأ السكران ، وقال بلهجة دهشة :

ـ انت تأمرني ؟ انت من انت ؟

وصمت لحظة ثم أردف قائلا :

ـ تعال واكسر رأسي ، هيا ·

فقال أبو فهد : اذهب واتركني · لا أريد ان اكسر رأسك ·

فقال السكران بسخط :

ـ لا لا · تعال واكسر رأسي ·

وتراجع قليلا الى الخلف ، وقال بصوت مرح :

ـ سأجعلك غربالا ·

ودس السكران يده في جيب شرواله واخرج منه موسى طويلة النصل · فسارع أبو فهد ، ومد يده الى حزامه منتضيا خنجره بينما كان السكران يدنو منه بحذر وسرعة ·

ورفع ابو فهد خنجره الىأعلى ، واهوى به ، فتحرك السكران الى اليسار بشكل خاطف مفاجيء فلم يمسه الخنجر ، ودفع الموسى في صدر ابي فهد هاتفا : خذ ·

وسحب الموسى من اللحم متراجعا الى الوراء بعض الشيء · والتصق أبو فهد بالحائط الترابي ، ورفع الخنجر ثانية غير ان موسى السكران طعنته مرة اخرى في الصدر ، وطعنته مرة ثالثة في الكتف اليمنى فتهدلت على الفور الذراع ، وافلتت الاصابع الخنجر فسقط على الارض ·

وصاح السكران وهو يتواثب حوله :

ـ خذ ·· خذ ·

وطعنه في خاصرته ، فشهق ابو فهد ، واحس بالضعف يدنهم ركبتيه فحاول ان يظل واقفا بثبات غير ان الموسى كانت تطارد لحمه ، وتصطدم به وتمزقه دون هوادة ·

وصاح السكران : خذ ٠

وطعنه في بطنه ، فاندلقت الامعـاء الى الخـارج ٠ وضغط ابو فهد عليها بيديه ، وكانت حارة مرتعشـة مبتلة ، وانزلق منهارا الى أسفل ، وارتمى على ظهره ، بينما كان السكران ينحني وهو واقف على مقربة منه ، ويسعل عدة مرات ويتقيأ ثم يركض مبتعدا ٠

وسمع ابو فهد الخروف يقول له :

ـ سبع جرار من الذهب ٠

وتساقط ذهب كثير ، وتوهج كشمس صغيرة ، ثم ابتدأ صوته ينأى رويدا رويدا ٠

الوجه الأول

وقف مأمون أمام مرآة خزانة الثياب على رؤوس أصابع قدميه محاولا أن يبدو طويل القامة غير أنه ظل طفلا لا يتجاوز عمره السادسة ذا وجه أبيض وسيم ، تتهدل على جبهته خصلة شعر سوداء · فاشتد غيظه ، ومد لسانه بهزء · وأبصرته أمه في تلك اللحظة فتوقفت عن التحدث مع جارة بدينة ، وهتفت باستياء :

ـ مأمون ، ماذا تفعل ؟

ـ اتفرج على لساني ·

ـ ستوسخ المرآة · ابتعد عنها ·

فأطاع مأمون أمه ، واقترب من الشباك المفتوح المطل على باحة البيت ، وتطلع الى السماء الزرقاء التي كان يعبرها آنذاك غراب يرفرف بجناحيه السوداوين ، فصاح مأمون على الفور بصوت رفيع حاد : قاق قاق قاق·

وخيل اليه أن الغراب لا بد قد سمعه ، وسينحدر نحوه · وعندئذ سيطلب مأمون منه أن يصطاد عصفورا جميلا ويحضره اليه حيا · وبادرت الام الى زجره قائلة بلهجة صارمة :

ـ اسكت ، كف عن الزعيق ·· هيا ·· اخرج من الغرفة ·

فاحتج مأمون قائلا : ماذا فعلت ؟

فقالت الأم : هيا ·· تحرك ·· العب في الباحة دون ضجة ·

واحنقه أن يلمح نظرة خبيثة متشفية في عيني الجارة البدينة الجالسة قرب أمه على الاريكة ، وحنى رأسه ، وغادر الغرفة متمهلا ، وابتدأ يهبط السلم الحجري الموصل الى الباحة بينما هو يحصي درجاته مرددا بصوت عال : واحد ·· اثنان ·· ثلاثة ·

وتجول مأمون في الباحة متضايقا متذمرا ، ثم جلس القرفصاء قرب أصص مزروع فيها نبات أخضر ذو أوراق صغيرة ·· وقد اعتادت أمه أن تعني بالاصص أشد العناية فتسقيها كل صباح وتنقلها من الشمس الى الظل ·

وتطلع مأمون الى أعلى حيث شباك الغرفة ثم مد يده بسرعة ، واقتطف من كل أصيص بضعة أعواد من النبات الاخضر ، وسارع الى وضعها في فمه ، وراح يمضغها متذوقا طعمها الحامض · وكانت أمه تغضب وتؤنبه كلما لاحظت نقصا فيأعواد النبات الاخضر · وقد شكته مرة لابيه الذي ضحك وقال لها : سيصبح ابنك خروفا ·

وكان ثمة بحرة في وسط الباحة ، وقد دنا مأمون منها ، وغمس يديه فيمائها الساكن ، وكانت المياه التي تتدفق من صنبورين حديديين مقطوعة ·

وهرول مأمون الى المطبخ ، وأحضر قنينة مليئة حتى نصفها بزيت الزيتون ، وصب منها بضع قطرات على وجه الماء ، فتشكلت في الحال ألوان عديدة زاهية ، سطعت ببهاء وفتنة تحت ضياء الشمس • وسئم مأمون بعد حين من مراقبتها ، فأعاد الى المطبخ قنينة الزيت ، وأخذ قطعة فحم من كيس كبير من الورق ثم عاد الى الباحة مبتهجا ، وهناك وقف أمام الحائط المطلي بالكلس الأبيض ، وطفق يرسم عليه ما يشبه رجلا ، وضحك حين أضاف اليه ذيلا ، ورسم عينا كبيرة ذات أهداب طويلة ، وشرع يتأملها ، وخيل اليه أنها ترمقه بحدة وغضب فسرى اليه ذعر غامض • وتناهى اليه وقتئذ صفير قطار ، فرمى قطعة الفحم ، وتحول فورا الى قطار • وركض حول البحرة مقلدا صفير القطار وضجيج آلاته• ولم تمض سوى لحظات حتى أطلت أمه من الشباك ، وهتفت بصوت غاضب : اخرس يا عفريت •

فكف مأمون عن الركض ، ولاذ بالصمت •

وأضافت الأم قائلة : هيا ، اخرج والعب في الزقاق •

فأحنى مأمون رأسه ، وفتح باب البيت ، ولكنه لم يخرج منه انما عاد مسرعا الى المطبخ ، وأخذ من خزانة الطعام الخشبية رغيفا ، وقسمه الى قطع صغيرة ، حشاها في جيبي بنطاله ثم غادر البيت •

وابتهج وجه ناديا ابنة الجيران حين رأته ، وقالت وهي تمد نحوه يدها القابضة على كرة من المطاط خضراء اللون :

ـ تعال ·· العب معي ·

فلم يفـه مأمون بكلمة انما دس يديـه في جيبي بنطاله ، وسار محني الظهر ، بطيء الخطى وهو يحس أنه رجل ضخم الجثة مثقل بالغم · وتبعته ناديا ، ورددت بصوت رقيق : تعال ·· العب معي ·

فتوقف مأمون عن المسير بينما كررت ناديا قائلة بالحاح : تعال العب معي ·

فانحنى على الارض ، والتقط حجرا ، ورفعه مهددا ، وقال بلهجة جافة : سأضربك ·

ففوجئت ناديا ، وتراجعت الى الخلف بينما كانت تطل من عينيها نظرة انكسار ، تهم بالتحول الى دموع ·

وتابع مأمون سيره · وضغط بأسنانه على شفته السفلى حتى تألم ، وعندئذ قال لنفسه : لا أحد يحبني ·· سأموت ·

وصمم وهو يلمس قطعة الخبز المحشوة في جيبي بنطاله أن لا يرجع مطلقا الى البيت · وجد في سيره حتى نأى عن الزقاق ، وبلغ شوارع عريضة ، فحرص أن يسير بحذر وتوجس على الأرصفة بمحاذاة جدران المباني العالية بينما كانت السيارات والباصات تهدر في وسط الطريق ·

وأخرج مأمون من جيبه قطعة خبز ، واقتطع جزءا منها بأسنانه ، وشرع يمضغها ببطء وتشف · وكان الناس يمرون حوله متسارعي الخطى ·

وأنشد الصخب انشودة مفعمة بالحيوية والحرارة ·

وابتدأ ينأى عن مأمون انقباضه ، ويحل محله فرح دون سبب · واسترعت انتباهه واجهة احدى الدكاكين ، وكانت مكتظة بدمى قطط وكلاب ودببة وفتيات ذوات شعر أشقر وفتيان صغار يرتدون ثياب بحارة ·

وابتسمت الدمى لمأمون وخيل اليه انها جائعة ، فمد قطعة الخبز نحوها ولكن الدمى ظلت تبتسم دون حركة ·

ومرت بجانب مأمون امرأة تمسك بيدها طفلا يقاربه في العمر ، له عينان كبيرتان ما كرتان · وفجأة فتح الطفل فما واسعا وأخرج منه لسانا أحمر فتجهم وجه مأمون ، وانطفأ فرحه الصغير ، وشتم الطفل الغريب الوقح الذي حاول أن يفلت من يد أمه ويهجم على مأمون لكن أمه جرته الى داخل محل لبيع الأحذية ·

واستأنف مأمون سيره ذاهلا وسط الضجيج · ولكنه توقف بعد حين أمام واجهة محل لبيع الأزهار · وفتنه قرنفل قرمزي يتوهج خلف الزجاج · وتذكر مأمون وجه أمه ، وتجسد في مخيلته باسما طافحا بالحنان · وخفق دمه مضطربا في شرايينه ، وارتبكت خطواته ، وكان مأمون في تلك اللحظة مجرد طفل في السادسة من عمره ، يمشي حائرا عبر شارع صاخب · وخارت عزيمته غير أنه عندما تخيل صيحات أمه المؤنبة عاودته الشجاعة والتصميم على عدم الرجوع الى البيت · وتخيل البيت ساعة يقبل المساء · سيسأل والده عنه · وسيؤنب أمه · فتبكي وتقول : فتشوا عن مأمون ·

وسيبحثون عنه في الشوارع كلها ، وسيعثرون عليه بعد تعب كبير . وسيرفض مأمون العودة الى البيت ، وسيكون وجهه جامدا بلا دموع . وسيهديه والده دراجة لها ثلاث عجلات وجرس ، وستقبله أمه وتعانقه بلهفة ، وعندئذ فقط سيقبل بالرجوع الى البيت . وسار مأمون في شارع جديد . واذا بحشد من الناس متحلقين حول ترام ، فهرول مأمون ، واندس بينهم ، وشق بجسمه الصغير طريقا له حتى أصبح يقف في المقدمة ، ولقد شاهد صبيا ممددا على السكة الحديدية وقد بترت عجلات الترام ساقيه ، وكان لون الدم أحمر امتزج بعويل الصبي الفاجع .

وأقبلت سيارة الاسعاف ، وحمل الصبي الى داخلها ، ثم ابتعدت مسرعة ، وظلت ساقا الصبي مطروحتين على سكة الترام .

وبكى مأمون بصوت عال ، ودفع الناس الذين كانوا يصخبون فيما حوله ، وأمسك به أشخاص عديدون فأفلت منهم بينما كان نحيبه يتزايد . واستطاع رجل كهل الامساك به من كتفيه وهو يقول :

ـ ما بك يا ولد ، لا تخف .

فردد مأمون : أريد ماما .

ـ أين أمك ؟

ـ في البيت .

ـ أين بيتكم ؟

وتحلق حوله عدد من الرجال والنساء ، وأخذوا يسألونه :

ـ ما اسمك ؟

ـ ما اسم والدك ؟

ـ أين تسكن ؟

وحاول مأمون أن يجيب لكن صـــوته اختنق ، وضاعت الكلمات كلها ، فاكتفى بالبكاء بينما النـاس يتكاثرون حوله ويشتد ضجيجهم .

سير حل الدخانة

كان أحمد بلا سجائر ، كتلة لحم مسترخية على وجه سرير · يهب عليه من النافذة المفتوحة هواء مثقل بأريج صيف موشك على القدوم · وكان أحمد راغبا في ايقاظ زوجته النائمة بجواره ليقول لها :

ـ رجع الصيف يا سميرة ·

وكان أحمد يحب الصيف ، ففي الصيف الماضي تزوج سميرة · ويحلو له على الدوام أن يتخيل الصيف أميرا ذهبي الشعر والوجه ، له يدان خشنتان وحانيتان ، ما أن تلمسان الحقول حتى تمتلىء بالسنابل الصفراء وتولد بهجة شبيهة بسرب عصافير يحوم عبر السماء الزرقاء · وكان باستطاعة أحمد في تلك اللحظة سماع أنفاس سميرة المتصاعدة بانتظام · ولقد استسلمت للنوم وهي حزينة غاضبة فقد آلمها أن تتحد ث طويلا عن أختها التي زارتها في النهار وعن زواج قريبتها ثم تكتشف فجأة أنه لا يصغي اليها فتصيح حانقة : تبدلت ·

ثم تردف وقد ازداد سخطها : لم تعد تحبني ·

وحدق احمد آنذاك الى وجهها الذي يحتفظ بطفولته متحديا الأيام المتعاقبة ، وقال بصوت بارد أجوف :

ـ قولي باختصار انك ندمت على الزواج من فقير ، ولا بد انك اشتقت للحياة مع أهلك الاغنياء ٠

فأجابت سميرة بنزق : لمـــاذا تذكرني بأهلي وكأنهم عار ٠

وتفاقم حنقه ، وأجاب بهزء : لا تخطئي فهمي ، أنا أفتش عن مصلحتك وسعادتك ، ألم ينصحوك بعدم الزواج من شاب مثلي ٠

فشحب وجهها ، وتلألأ الحزن في عينيها ، وكان بمقدور احمد وقتئذ أن يحدثها عن رسالة شقيقه القابعة في جيبه ٠٠ ويطلب فيها منه نقودا ليشتري سجائرا ٠٠ شقيقه الصغير الشرس الذي سجن بسبب اقدامه على ضرب احد الاشخاص ٠

وكان أحمد بلا نقود أو سجائر ، وتصور احمد شقيقه السجين متجهم الوجه متقلص الفم ، ولا بد أن حنينه الى التدخين يعـذبه دون رأفة ٠ احمد يتعـذب مثله ، ويحس ان دمـه ولحمه وفمـه صراخ تواق الى الامتزاج بسحب الدخان المتصاعدة من التبغ المحترق ٠ وقـد راقب قبل عودته الى المنزل النـاس يسيرون في الشوارع ويدخنون ، ومنعته كبرياؤه مـن الانحنـاء والتقاط عقب سيجارة ، رماه الى الارض رجل أنيق بحركة لا مبالية من يده ، وشعر احمـد بذل ، ورثى لحاله ، واكتسحته رغبة حمقاء بالبكاء كامرأة هرمـة فقدت جميع أولادها الشبان ، وأدهشته هذه الرغبة ٠

ولقد كانت زوجته على حق حين هتفت : تبدلت ٠

وكانت قبل عام تقول : سنعيش سعداء .

فيكون احمد الصدى الذي يردد كلماتها بحماس : سنعيش سعداء .

وكان أهلها يقولون لها : ستجوعين معه .

وكان والده يردد على الدوام : يولد الانسان الفقير ، وما أن يكبر حتى يركض وراء الرغيف ثم يجد نفسه عجوزا قريبا من القبر .

ولقد ركض أحمد طويلا ، وما زال يتابع الركض .

وتذكر كلمات أمه الموجهة اليه والى اخوته : اياكم يا أولاد أن تناموا وأنتم مكتئبون مهما تكن حياتكم بائسة .

وتطلع أحمد الى زوجته الغارقة في النوم ، ومد يده بحركة آلية الى كتفها وهزها مناديا بصوت خفيض : سميرة سميرة .

فانتفضت مستيقظة ، وقالت بصوت واهن : مابك ؟

ـ لم أستطع النوم ، معدتي تؤلمني . ربما أفادني الشاي الساخن .

ونهضت دون تذمر ، وحينما أضاءت المصباح الكهربائي تطلعت اليه بوجه يرين عليه النعاس والحنان ، وقالت : لن أغيب طويلا .

وصاح احمد حين فتحت الباب وهمت بالخروج : سميرة .

فالتفتت نحوه متسائلة : أتريد شيئا آخر ؟

فقال وهو يبتسم : شعرت الآن براحة وزال الألم ، ارجعي ونامي .

فأطفأت النور ، ورجعت الى السرير ، وتمددت بجوار احمد الذي سألها :

ـ هل انت غاضبة ·

فأجابت بسرعة : لالا ، كنت سريعة الغضب وبلهاء ·

ودست وجهها في صدره كطفلة تلوذ بأمها ، وبعثت حركتها هذه في جسده حبورا كغناء عصفور فرح بالربيع العائد · وقال لنفسه : أصدقائي كثيرون· غدا يوم عطلة · سأستدين من أحدهم مبلغا من المال ، وسأرسل قسما منه لأخي ، وسأنفق الباقي · وتذكر مقهى أخضر خارج المدينة · وقال احمد بصوت مرتفع مخاطبا سميره : أتذكرين المقهى الذي كنا نقضي فيه الكثير من أوقاتنا أيام الخطبة ؟

ولم تجب سميره فتابع قائلا :

ـ سنذهب اليه غدا ، ونقضي نهارنا هناك ، ما رأيك ؟

ولم يسمع من سميرة أي جواب ، فقد عادت للاستسلام الى النوم · وكان احمد سعيدا فرغبته في التدخين انطفأت · انه يستنشق الأريج الغامض الذي يحمله الهواء المتسلل من النافذة المفتوحة التي كان يمر تحتها في تلك اللحظة سكران يغني بصوت خشن ·

واستسلم احمد للسبات رويدا رويدا بينما كان يتناهى اليه من بعيد صوت السكران الخشن الذي يجد فيه عذوبة عجيبة · وشاهد أثناء نومه الصيف ، وكان طفلا ذهبي الشعر والوجه ، يلعب على شاطيء رملي ·

اتكأ عمر السعدي بمرفقيه على سور النهر ، وتأمل منتشيا المياه المنسابة تحت ضياء الشمس . وخيل اليه لمدة لحظة خاطفة ان النهر امرأة مسحورة غامضة الفتنة .

وكان النهر في القديم وحيدا ، تتدفق مياهه عبر ارض مقفرة ، ولقد ظلت الارض مقفرة والنهر وحيدا حتى أقبل انسان ما ، وجثا وقبل التراب بخشوع ، وعندئذ نبتت البيوت والدكاكين والمآذن والمقابر .

وكان عمر السعدي يعشق النهر . وقد ابتسم بغبطة وهو يرمق مياهه التي تغني بأصوات خافتة ، وكان الهواء يبعثر خصلات شعره على جبهته بينما السيارات تمر خلفه على اسفلت الشارع .

واقبلت بغتة سيارة البوليس ، وتوقفت بمحاذاة الرصيف ، ونزل منها اربعة من رجال البوليس ، فحث المارة خطواتهم وقد استحالت وجوههم الى اقنعة من الشمع الاصفر .

واقترب رجال البوليس من عمر السعدي وايديهم على مقابض مسدساتهم المتدلية من خصورهم . واستدار

عمر ليواجه اربعة وجوه متجهمة · وابتدره احدهم متسائلا بصرامة :

ـ أنت عمر السعدي ؟

فالصق عمر السعدي ظهره بسور النهر وسمع صرخة سوداء نائية تمتزج باغنية المياه العميقة · وقال بصوت خفيض مرتعش :

ـ أنا عمر السعدي ·

فأحاط به آنئذ الرجال الاربعة ، واقتادوه الى جوف السيارة ، وتحلقوا حوله ، وكانوا كحراب صدئة ·

وانطلقت السيارة تعبر الشوارع مسرعة ، وبوقها يرسل ولولة مديدة ·

وتحول غناء النهر الى استغاثة خافتة ، واشتد اضطراب عمر ، فأخرج من جيبه سيجارة ، وحاول ان يشعلها بيد مرتجفة غير ان واحدا من الرجال اختطفها من فمه بحركة سريعة ، ورماها خارج السيارة ، ثم التفت الى عمر وصفعه قائلا له :

ـ انت لست في مقهى ·

فانكمش عمر مذعورا · وكان النهر في تلك اللحظة نائيا تترقرق مياهه حزينة تحت شمس صفراء ·

وتوقفت السيارة على حين غرة ، وجر الرجال الاربعة عمر الى جوف بناء حجري · صعد عمر السلالم الحجرية · سار في الممرات الضيقة · دخل الغرف الكثيرة ، وسمع صرخات كان أصحابها يحرقون · وقال له رجال عابسو الوجوه : انت اذن عمر السعدي ؟

ودفع عمر اخيرا الى زنزانة · وعندما اغلق بابها

خلفه تطلع عمر فيما حوله فألفى نفسه وحيدا ، ولم يكن للزنزانة اي نافذة · وكان ثمة نور قليل ينبعث من مصباح كهربائي متدل من سلك حديدي قصير مثبت في السقف · وكان هناك ايضا فراش ملقى على الارض كجثة هامدة ، فتمدد عمر فوقه ، وأخفى وجهه في الوسادة فداهمت انفه في الحال رائحة غريبة ، وخيل اليه انها رائحة مخلوقات ستهلك عما قريب ·

وحاول ان يتذكر ذنبا اقترفه دون ان يدري ·

ولم يعد عمر فيما بعد يعرف الليل والنهار · وكان يعذبه ان ينأى عنه غناء النهر الخفي · وبقي في الزنزانة دون ان يوجه اليه احد سؤالا ما · وكان الحارس الذي يحضر اليه طعامه هو الشخص الوحيد الحي الذي يبصره كل يوم ، وقد حاول مرة مخاطبته فكان الجواب ركلة جعلت عمر ينطرح على الارض ويطلق صيحة ألم شبيهة بنباح كلب · وقد خيل الى عمر وقتئذ ان الحارس ليس له لحم أو عظم تحت ثيابه · وابتدأ منذ ذلك الحين يرهبه ويخشاه ، وكان يحس ان دمه طفل ينتحب لحظة يتناهى اليه ارتطام حذاء الحارس بأرض الممر الصلدة ، وابتدأ ينسى النهر وبيته · ولم تكن الشمس تشرق من جبهته · وقد شاهد مرة اثناء نومه امرأة بيضاء الوجه ، شعرها اسود ، وعيناها خضراوان ، انبثقت من النهر يقطر منها الماء ، وكانت فائقة العذوبة ، ولشعرها رائحة قمح يابس ·

وحين استفاق عمر من نومه لم يجد المرأة في

زنزانته غير أنه أحس انها موجودة قربه ، فنـــادى بضراعة تلك المرأة الخضراء ، واغمض عينيه ، وشاهد المرأة ثانية ، وكانت عيناها مغرورقتين بالدموع ، ولقد ود لو تتكلم ولكنها ظلت صامتة · وتخيل عمر محكمة قاضيها مجلل بالسواد ، يطرق منصته بقبضة ضخمة الحجم ، ويتلو حكما بأن يسجن عمر السعدي في قفص حتى الموت ·

وفتح عمر عينيه ، وأسعده انه لم يحاكم بعد · واسترعت انتباهه يده التي كانت تتحرك وحدهـا ، فتأملها مليا ، وابتسم اذ خامره احساس بأن هذه اليد غريبة عنه ، وتابع تأملها بخوف ، فتحركت الاصابع الخمس وكأنهـا اذرع صغيرة لعقرب ، وانحـــدرت الاصابع الى اسفل ، ولمست ارض الزنزانة · وأيقـن عمر ان يده عقرب يدب نحو فريســـة ما ، واجتاحه حماس مفاجيء يبغي القضـــاء على عدو مبهم · ودب العقرب ساحبا خلفه عمر حتى اصطدم بأسفل الحائط ، وعندئذ نهض عمر واقفا ، وابتدأ يمشي محصيـــا خطواته : واحدة ، اثنتان ، ثلاث · وتوهج رقم ثلاثة في مخيلته ، ثلاث نجوم ، ثلاثة جياد ، ثلاثة انهار ، ثلاثة فتيات ذوات شعر اسود ووجوه بيضاء ·

وبلغ مسمعه وقع حـــذاء ثقيل يدنو من باب الزنزانة ، فهرع نحو فراشه ، وجلس فوقه ، وتجمد متضائلا ، يغمره خوف غريب ، وتفاقم خوفه حتى تحول الى ألم يرعش اللحم والعظم ·

ودار مفتاح في ثقب قفل الباب ، فاشـــتد هلع

عمر ، ولم يحاول ان يتطلع نحو الباب فقد كان يعلم ان القادم هو الحارس ·

وانحنى الحارس شبحا طويلا اسود ، ووضع على الارض صحنا ورغيفا · وارتجف عمر ، وابتهل بذل ان لا يقترب الحارس منه ، ويفاجئه بركلة · وهمس مخاطبا المرأة الخضراء : انقذيني انقذيني ·

وغادر الحارس الزنزانة ، وأوصد الباب خلفه ، ثم سمع عمر وهو يلهث الحارس يبتعد عن الزنزانة ضاربا أرض الممر بحذائه الثقيل ، وعندئذ تنهد بارتياح ، وادار رأسه نحو الباب وقد انحسر خوفه ، ولم تتكلم المرأة الخضراء ، ولم يسمع عمر هدير النهر ·

وتعالى فجأة مواء قط ، فعاد الخوف ضاريا الى شرايين عمر ، وحدق بامعان ، فأبصر قطا ابيض بالقرب من صحن الحساء والرغيف فدهش وامتلكه الفرح ، ودنا منه محاولا الامساك به ، فقفز القط متراجعا الى الوراء ، فحمل عمر الرغيف وصحن الحساء ، واقعى في منتصف الغرفة تحت نور المصباح الكهربائي ثم حرك اصابع يده قائلا للقط :

ـ تعال بس بس ·

وكان القط ذا عينين براقتين ، وقد صدر عنه مواء خافت منقطع وهو يقترب من عمر ·

وقال عمر للقط :

ـ انت جوعان يا مسكين ·

واقتطع عمر من الرغيف قطعة صغيرة ، واختار ان تكون لينة ، وغمسها في الحساء ، ومدها الى القط ، فشمها القط ، ولم يأكلها انما تمسح باليد التي تمسك بها ، فقال عمر له :

ـ كل ٠٠ ألست جائعا ٠

فتلقف القط قطعة الخبز ، وأخذ يمضغها بسرعة، وما ان ابتلعها حتى راح يموء مطالبا بقطعة اخرى ٠

وابتهج عمر ، وطفق يطعم القط وهو يرمقه بحنان ، ومضى القط حين شبع نحو الفراش ، وقبع فوقه واخذ يلعق يده ، ويمسح بها جلده ٠ وقعد عمر على الارض ، وراقب القط هنيهات ثم دنا منه ، ومسح بيده على ظهره ، وحك بأصابعه تحت ذقنه ، فهر القط راضيا ٠

وسأله عمر بصوت مرتفع : ماذا فعلت ؟

وصمت لحظة ثم تابع قائلا : ماذا فعلت حتى سجنوك ؟

فهر القط ثانية هريرا سعيدا ، وايقن عمر ان القط يفهم كلماته ولكنه عاجز عن مبادلته الحديث ٠

وقال عمر : ماذا فعلت ، هيا قل لي ، السنا أصدقاء ؟ هل قتلت قطا ؟

واغتبط عمر بسماع صوته ، واستأنف يحدث القط :

ـ هل سجنوك لانك لم ترتكب ذنبا ، ؟ هل تملك بيتا ؟ انت تنام في الشارع وتجوع ٠

واغفى القط قليلا ٠ وابتسمت المرأة الخضراء ولكنها لم تفه بكلمة ، وظل عمر يراقب القط حتى افاق من نومه ٠

وتمطى القط وتثاءب ثم تجول في جنبات الزنزانة، فقال له عمر :

ـ ها ٠٠ بيتنا صغير ٠

واتجه القط نحو الباب ووقف لصقه ، وابتـدأ يموء فقال له عمر بخوف :

ـ اسكت ٠

فلم يأبه القط له ، وتابع مواءه ، فاستولى الغضب على عمر ، وركل القط ركلة قوية ، فأطلق القط مواء متألما ، ولكنه لم يبتعد عن باب الزنزانة ، واستمر يموء بحدة ٠ وخيل الى عمر ان المواء مفعم بالحنـين العارم الى الشمس والهواء والنجوم والشوارع والنساء اللواتي لهن اعين خضراء وشعر اسود ووجوه بيضاء ، وعاد اليه شوقه الى الحياة خارج الزنزانة غير انـه حاول ان يبدد هذا الشوق ، وتهالك على الارض حائرا هلعا ، وقال للمرأة الخضراء :

ـ سأهلك ٠٠ سأهلك ٠

وصعد مواء القط حادا عنيفا وكأنه صراخ الدماء المندفعة في شرايين عمر ٠ ولمست المرأة الخضراء جبهة عمر ، ووجد عمر نفسه يقترب من باب الزنزانـة ، ويجثو على ركبتيه ويلصق وجهه بحديد الباب ٠

وسمع عمر هدير مدن مفعمة بالصخب ، وتعالى صوته مقلدا مواء القط ٠ وكان صوته في البداية مرتعشا مرتبكا ، ولكنه ما لبث ان اشتد وامتزج بمواء القط في صراخ شرس موحش ٠ وضحكت المـرأة الخضراء بعذوبة ، وغمغمت بكلمات لم يستطع عمر سماعها ثم غابت في النهر ٠

وطفق عمر يصرخ ، واجتاحته الغبطة اذ سمـع الحارس يدنو من باب الزنزانة ، فنهض ووقف مشدود القامة ، ينتظر بلهفة ركلة الحارس ٠

ربيع في الرعاد

كان في قديم الزمان مدينة صغيرة ، بنيت وسط حقول فسيحة خضراء ، يرويها نهر سخي المياه • وكان ناسها جميعا يحملون في جيوبهم قطعا من الورق السميك كتب على كل منها اسم من الاسماء •

كان ناسها مزيجا من الاغنياء والفقراء ، وكان الاغنياء مهذبين لطفاء • يملكون اقنعة بيضاء واحذية لامعة ، ويجيدون الرقص والتحدث بنعومة ، ويتقنون الانحناء برشاقة وتقبيل ايدي النساء ، وكان أطفالهم ينادون امهاتهم برقة زائدة : ماما •

وكان الفقراء يقهقهون بخشونة في لحظات الفرح ، ويكثرون من البصق ، ويؤمنون بأنهم سيحلون ضيوفا في جنة الله بعد موتهم ، وكانوا ينادون امهاتهم بصوت فظ ممطوط : يا أمي •

وكان الاغنياء والفقراء يحترمون الموتى احتراما شديدا ، فعندما تمر جنازة يتوقف المارة عن السير ، ويتألق الحزن والخوف في اعينهم ، ويساهم بعضهم في حمل نعش الميت المجهول الاسم مسافة غير قصيرة • ولحظة يفتحون افواههم لتتلقف اللقمة الاولى من

طعامهم ، كانوا جميعا يقولون بخشوع : بسم الله الرحمن الرحيم · ويتمتمون في ختام الطعام : الحمد لله رب العالمين ·

وعندما كانت تأثم فتاة ما في المدينة ، كان رأسها يفصل عن جسدها دون تردد بسكين كبيرة النصل ·

وكان العمال يشتغلون ثماني ساعات في اليوم · ويتلاقى العشاق خلسة في عتمة دور السينما ، وهناك تتعانق الايدي بحرارة ·

ويدأب الاطباء على اسداء نصائحهم بوقار :

امضغوا الطعام جيدا ·· ناموا في وقت مبكر ·· ابتعدوا عن السجائر والخمور ·

ويهـــز الكهـول رؤوسهم بحسرة وأســف وهم يغمغمون : عم الفساد ·· المرأة تلبس البنطال ·· الابن لا يحترم اباه ·· هذه هي العلامات المنذرة بانتهاء حياة العالم ·

وكان الاصدقاء يقولون لبعضهم عنــدما يتقابلون في بداية النهار : صباح الخير ·

وكان لتلك المدينة ، رغم صغرها ، شمس تشرق في وقت معين ، ثم تأفل كذلك في وقت معين · وكان لها ايضا ليل مرصع بنجوم كثيرة العدد ، تبهت حالما يبزغ القمر الابيض ·

وكان ثمة رجل له اسم ما يحيا في هذه المدينة ، وجهه جمجمة التصق بعظمها جلد شاحب جاف · وكان يشتهي بضراوة ان يكون زهرة أو عصفورا أو غمامة تحب السفر ، ولم تستطع الكآبة ان تهزمه رغم علمه انه لن

يكون لا زهرة ولا عصفورا ولا غمامة تحب السفر ٠ ولكنه سئم من العيش وحده في منزل صامت موحش ، فصمم في لحظة من اللحظات الرمادية على شراء امرأة ، امرأة قد تؤنسه وتبدد بصوتها الصدأ المتشبث بأيامه ٠ وقصد الرجل سوق الجواري ، واختار امرأة لها عينان كبيرتان ينتحب في غوريهما اسى ممتزج بسحر شديد الغموض ٠ ودفع الرجل ثمنها وهو يقول لنفسه : ربما استطاعت ان تقتل القنفذ الباكي في دمي ٠

ولم يقل الرجل اي كلمة للمرأة اثناء سيرهما في الطريق ، ولكنه عندما وصلا الى المنزل سألها :

ـ ما اسمك ؟

فأجابت المرأة بصوت خفيض ناعم مرتعش بعض الشيء :

ـ اسمي ندى ٠

وكان الرجل جالسا آنئذ بالقرب من المرأة ، واضعا على ركبتيه يديه الخشنتين اللتين كانتا مرتجفتين، تهدر في عروقهما دماء وحشية ٠ وتمنى لو كانت المرأة في تلك اللحظة عارية على شاطىء رملي ، تواجه بحرا ازرق يبلل نهديها بمياهه الساخنة المالحة ٠ وقال بلهجة مضطربة :

ـ من اي بلد انت ؟

ـ ليس لي بلد ٠

فتأملها مليا ، ثم قال : انت جميلة ٠

وكان فمها حيوانا غامضا صغيرا ، قرمزي اللون ، بدا لعيني الرجل انه فم وحيد بطريقة ما ٠ وتقلصت

اصابعه ، وسرت فيها رعدة قاسية وهو يقول بتؤدة : اسمك جميل ايضا ٠

فقالت المـــرأة وهي تبتسم بغموض : اســـمي الحقيقي شهرزاد ٠

فهتف الرجل وقد استولت عليه الدهشة : أأنت شهرزاد ؟

فقالت المرأة : انا شهرزاد ٠٠ لم يحصدني الموت ٠٠ شهريار مات ٠

قال الرجل : لم يمت شهريار ٠٠ انه مازال حيا٠

قالت المرأة : آه يا مولاي ٠

ـ انهارت مملكتي يا شهرزاد ٠

ـ افترقنا عن بعضنا ٠

ـ تهنا عبر الارض الكبيرة ٠

ـ بحثت عنك في كل الامكنة ٠

ـ ارغمني الجوع على البكاء ٠

ـ سجنت في غرفة موصة الباب ٠

ـ صرت متسولا ٠

ـ مشيت في الطرقات وانا متلفعة بملاءة سوداء ٠

ـ حفرت الارض بأظفاري ٠

ـ عشت امرأة وحيدة في مدن يسكنها الرجال فقط ٠

ـ بصق في وجهي ٠

ـ اشتراني رجال يملكون ذهبا ٠

ـ انا رجل مسكين ٠ لماذا تركتني يا الهي ؟

ـ اواه كم تعذبنا ٠

ـ آه كم تعذبنا ٠

وتعانقا بعنف ، وانتحبا طويلا · وهمس الرجل بصوت متهدج : احبك ·· احبك ·

فتطلعت اليه بعينيها المبللتين بالدمع ، وكانت تصرخ في اعماقهما شهوة مدت الى لحمه مخالب لم يستطع الافلات منها ، فاحتضن جسد الانثى بلهفة ، وما ان التصق فمه بفمها حتى تناهى الى مسمعه صراخ آت من الشارع : هجم الاعداء ·· اقتلوا ·· اقتلوا ·· الى الحرب ·

وتصاعد قرع طبل ذي ايقاع مهيب غاضب لم يقدر الرجل ان يتجاهله ، فأبعد عنه جسد الانثى بحركة صارمة ، فصاحت المرأة متوسلة : لا تتركني ·· لا تحارب ·· ابق بجانبي ·

قال الرجل : اسكتي ·· أزقة المدينة ·· امي تناديني ·

وتناول سيفه المعلق على الحائط ، وانحدر الى الطرقات حيث كان الرجال يتقاتلون في عتمة المساء · واندفع الرجل الى قلب المعركة ، وشرع يسدد سيفه نحو أي صدر يجده امامه · وكان يبتهج كلما انزلق النصل الطويل الصلب مخترقا اللحم اللين بحركة شرسة ضارية ·

وحينما انتهت المعركة ، وقف الرجل وقد بلل جسده العرق والدم · وانتابه هلع شديد اذ تبين له انه الرجل الوحيد الباقي على قيد الحياة ، واما الرجال الآخرون فقد تناثرت جثثهم على اسفلت الشارع اكواما من اللحم الممزق ، فارتمى على الارض الدامية ، وطفق

ينتحب بمرارة بينما كانت النيران تلتهم منازل المدينة وقتلاها ٠

وكف الرجل عـــن البكاء لحظـة اقتربت منـه النيران ، وسارع الى الهرب خارج المدينة حيث الحقول الشاسعة وهناك ابصر المدينة وقد استحالت الى كتلة ضخمة من نار حمراء متوقدة في قلب الليل الاسود ٠ فتهالك على الارض المعشوشبة مستسلما لنوم عميق ٠ ولم يستفق الا عندما اشرقت شمس نهار جديد ٠

كان السكـون مهيمنا في كـل الارجاء ، وكانت المدينة كومـة كبيرة سوداء يتصاعد منهـا الدخان ٠ وسمع الرجل صوت بكاء خافت ، فأجال نظرته فيماحوله مستطلعا الى ان وقعت على فتاة في مقتبل العمر مرتمية على العشب ، فدنا منها وسألها : لماذا تبكين ؟

ـ احترقت المدينة ٠ مات الجميع ٠

ـ اذن لم يبق احد ٠

ولم تجب الفتاة وانما استأنفت نحيبها ٠ فسألها ثانية : لماذا تبكين ؟

فقالت وهي تخفي وجهها في راحتيها : أنا جائعة ٠

فتركها الرجل ،ومضى يبحث عن طعـــام ما ٠ واغتبط اذ عثر على شجرة تفاح ذات اغصان مثقلة بثمار ناضجة ٠ فاقتطف بعضها ، وحمله الى الفتاة ، واخذ يراقبها بحنو وهي تأكل التفاح بنهم ٠

وعاوده الحنين لأن يكون زهـرة او عصفورا او غمامة تحب السفر ٠

وقال لنفسه متسائلا : هل اسم الفتاة شهرزاد ؟

ومسحت الفتاة وجهها بطرف ثوبهـا ، ورمقت الرجل بامتنان عميق ٠

كان وجهها وديعا ٠ وتذكر الرجل أيام طفولته الآفلة ، وقال بحزن : اذن لم يبق سوانا من الاحياء ٠

وظلت الفتاة صامتة غير ان شفتيها انفرجتا قليلا كأنها توشك ان تشهق منتشية دون صوت ٠ وشاهد الرجل وردة حمراء ، فاقتطفها وقدمها بارتباك الى الفتاة التي تقبلتها ببسمة خجولة ، ايقظت الفرح وجعلته يردد في شرايين الرجل اجمل اغانيه ٠

وعاون الرجل الفتـــاة على النهوض ، ثم ســارا بخطى متمهلة نحو المدينة الميتة السوداء ٠

وسمعا بغتة عصفورا يغرد ، فتوقفا عن السير ، وتلاقت عيناهما في نظرة طويلة ، وخيل الى الرجل انه يسمع ضجيج أطفال ممتزجا بعويل ناء ٠

وتابع الرجل والفتاة مسيرهما وقد تعانقت يداهما بود وألفة ٠

وامامهما كانت التشمس فتية وضاءة ٠

القرصان

١ ـ كنت قرصانا

كان القرصان رجلا مديد القامة ، وجهه قاس وشرس · تثب الى عينيه حين يبتسم نظرة صارمة شبيهة بنصل سيف سطع بغتة تحت ضوء الشمس · ولم يمت عندما حطمت العاصفة سفينته ، فقد حملته الامواج الى احد الشواطىء ·

واشرقت الشمس ، والقت فوقه شعرها الاصفر الحار غير انه ظل مستلقيا دون حركة بينما كان الرمل الدافىء المبلل المالح يحتضن وجهه · وادرك انه سيظل حتى الموت وحيدا كغراب هرم ، بلا سفينة وبلا رجال وبلا حبيبة ·

ولقد كان القرصان يعشق امرأة اسمها رندا ، بيضاء اللحم ، تضحك بعذوبة ، وشعرها الاسود يجعله يرتعش وينتظر سماع صرخة المحارب العاري الذي لا يملك مقعدا في مقهى ويملك رمحا وجسدا مظلما · ولقد ماتت رندا في الليل ، ولقد انحنى القرصان ، وقبل باشتهاء فمها البارد ، وعندئذ سمع اصوات الريح الغاضبة ، وهو متأكد من ان رندا الآن في قعر البحر او

ربما كانت جثة طافية على وجه المياه · لكنها كانت طيبة القلب فلم تتخل عنه ، ورافقته الى الشاطىء بشكل غامض ·

وفيما مضى من الايام ، جاب القرصان البحـار · نهب السفن · قهقمة امام الحرائق · اغتصب نساء · سيفه تلطخ بالدم · وطأ الذهب بازدراء وجشع · شاهد المدن الغريبة · ضحك دون فرح · سكر طوال ليال · وكان الها صغيرا يقف في بعض الليالي وحيدا على سطح سفينته ، يصغي الى صخب رجاله الثملين ، ويحملق في السماء الملأى بالنجوم ، باحثا عن نجم ما ·· لم يبزغ ·

رندا قربه ، يدها على شعره · قالت : لا تبك ·

فنهض القرصان ، وابتعد عن الشاطىء والبحر ، واندفع نحو شوارع المدينة ، وكانت وقتئذ غاصـة بالناس · ولم يبتسم له احد ، ولم ترمقه أي امرأة · وكان النهار عصفورا ابيض · ورندا صامتة ذات وجه اسيان ، قال لها : هل تشتغل الآلهة ثماني ساعات ؟

رندا صامتة تحدق بوجوم الى مرآة كبيرة بينمـا الهواء يداعب خصلات شعرها الاسود · واحس القرصان بان ثمة انسانا مريضا ، يختبىء خلف جلده ، ويئن بصور مفجعة ·

قالت رندا فجأة : رحل القطار ··

وكانت موسيقى الحزن تنشد بضراوة ، محاولة ان تكون طوفان رماد ، يجتاح العـالم ، ويطفيء كل الانوار ·· آه يا افراح الارض المتوارية ·

وابتدأت مدية الليل تنغرس في قلب النهار ، وتساقطت العتمة كثلج اسود ، واضيئت المصابيح الصفراء في الشوارع ٠

ولمس القرصان تجاعيد وجهه وشعره الذي تسلل اليه الشيب ، وقال لرندا : سيرحل قطار آخر ٠

وكانت النجوم تتألق ببرود في الاعالي ، وكان ثمة فندق في الميناء ، فاحصى القرصان نقوده ، ثم قصد الفندق فقد كان بحاجة الى نوم طويل ، واعطي سريرا في غرفة ضيقة ، جدرانها مدهونة بلون اصفر باهت ٠

نام القرصان ٠ رندا تضحك بعذوبة ٠٠ لحمك يا حبيبي نهر خمر ابيض ٠٠ وفي فمك صيف نائم ٠٠ عيناي ٠٠ وجهي ٠٠ اصابعي ٠٠ بحارة قواربهم محطمة ، ويحلمون بالتشرد عبر السهول المعتمة ٠٠ لكم اشتهي رؤية شعرك الاسود المديد مبعثرا ٠٠ طفل يضحك في دمي ٠٠ وها هم رجالي يصعدون من اعماق البحر حاملين جثة الموت المقهور ٠٠ وها هي سفينتي تمخر عباب البحر ٠٠ وحبيبتي رندا تضحك ٠٠ والسحب تنأى عن السماء ٠٠ يا وجه السماء الازرق ٠٠ يا رفيقي المرح ٠٠ اقبل اقبل ٠

وافاق القرصان في الصباح ، وجلس في ردهة الفندق ، وكان ثمة اناس حوله ، كلهم اغراب ، أتوا من مدن وقرى نائية ٠ وتساءل : لماذا اتوا الى هنا ؟ سيموت الرجل الهرم ٠ ستتزوج الصبية ، ستنجب اطفالا ، ستتشاجر احيانا مع زوجها ٠ سيكبر الطفل ، وسيتعرف على الكلمات والله والمدن ، وستعانقه الافراح

والاحزان ، وسيبحث عن الفرح وحده ولن يجده · المرأة التي ولى شبابها ، ستنزوي في الاماسي ، وتحكي ذكرياتها ، ولن يقول لها احد : يا حبيبتي ، وسترتجف في ليالي الشتاء ، ولن يؤنسها سوى قط جائع · الشاب المهتم بثيابه وشعره وحذائه ·· ها هو كصرخة جامحة ولكنه سيضمحل رويدا رويدا ·

الفندق ·· انه مكان ضيق جدا ·· مغروس في قلب العالم الكبير ·· تتلاقى فيه دوامة وجوه غريبة ·· تأتي لتنام ثم تحتسي القهوة صباحا وترحل ·

قالت رندا : السماء فارغة ·

وتطلع القرصان عبر النافذة الى السماء ، ولم يعثر على عصفور او غيمة · شرب فنجان قهوة · دخن سيجارة على مهل · تجرع كوب ماء بارد · ثم ترك الفندق ، ومشى بطيئا وعيناه مغمضتان نصف اغماضة ·· رندا امرأة جميلة تحب الموسيقى · موسيقى الارض نائية · صوت رندا وحيد بلا كلمات · صوتها موسيقى تنساب الى الشرايين ، وتحول الدم الى عطر اسود ·

وابصر القرصان فتاة صغيرة ، عمرها لا يتجاوز تسعة اعوام ، وكانت تقف قرب باب احد المنازل ، ملصقة ظهرها بجدار أبيض ، وترتدي ثوبا ازرق قصيرا ، يكشف عن ركبتين بلون غيوم الصيف ، وقد رمقهما القرصان بفضول خبيث ، فأمسكت الفتاة الصغيرة بطرف ثوبها ، ورفعته قليلا عن فخذيها بينما كانت تطل من عينيها نظرة عاهرة عجوز ·· بعثت في أوصال القرصان هلعا متوحشا ·· اخجلي يا صغيرة · احبي

العشب والورد والاشجار والغيوم والحمامات البيضاء ٠ اهتفي فرحة بالمطر لحظة ينهمر ٠ اضحكي ٠ العالم كله ملكك ٠ قفي في الشـوارع الصاخبـة واغمضي عينيك وانصتي الى الغناء الصادر من حنجرة المدينة ٠٠ اصوات الرجال والنساء والاطفال والسيارات والدراجات ٠ مات الخوف ٠ حكايات جدتك ٠٠ كلمات ليلة مملة ٠ كوني نجمة او قطرة ماء او كوني دمية ساذجة الملامح يرمقها الاطفال بجذل ، وتجبرهم على اطلاق صيحات الدهشة والتعجب حين تغمز بعينيها ٠ وفي ليالي الصيف تمددي على سطح عال ، وستنحدر النجوم ، وتلمس شفاهها وجهك ثم تنام نجمتان في عينيك ٠٠ ما أجمل العيون التي تنام النجوم في اغوارها ٠

وحث القرصان خطاه فقد كان جائعا للغاية وبلا نقود ٠ الخبز ابيض وراء الزجاج ، وعناقيـد العنب حمراء مكدسة في صناديق خشبية ، والتفـاح أصفر واحمر في السلال ، وثمة تين اخضر ٠

وبلع القرصان لعابه بصعوبة ، ولم يستطع ان يمد يده ، وينال ما يشتهي من طعام فهو لا يملك نقودا ولا سيفا ، وكان رجـال البوليس منبثين في الطرقات والاسواق ، يراقبون بأعين يقظى صارمة بينما تتدلى المسدسات الضخمة مـن احزمة جلدية ملتفة حـول خصورهم ٠

وقف القرصان طويلا امام مرآة قابعة في واجهـة احدى المحلات ، وشاهد في المرآة رجلا أصفر الوجه ، ينتحب في عينيه فقراء الارض كلهم ٠ وخيل الى القرصان

انه يرى هذا الرجل لاول مرة ثم توهم خلال لحظات انه ابصره من قبل ، وكان مسمرا على خشب صلد ، وكانت المسامير الغليظة مزروعة في يديه وقدميه ٠

واستأنف القرصان مسيره برأس منكس بذل ، وفوجىء بعد حين برجل انيق الثياب ، يصدمه صدمة قاسية ، ثم يبادره قائلا بفظاظة : هيه ٠٠ هل انت أعمى ؟

ولم يجب القرصان فقد كانت سفينته وبحارته ورندا في تلك اللحظة في جوف البحر ، ورفع الرجل الانيق يده وصفع القرصان صفعة قوية ثم تابع سيره وهو يزمجر غاضبا ٠ وانبثق الدم في الحال من أنف القرصان بغزارة ٠

هتف بلهفة : رندا ٠

وكانت رندا آنئذ امرأة شاحبة ، تنصت الى موسيقى بعيدة ٠

وهتف القرصان مرة ثانية بذعر : رندا رندا ٠

وكانت رندا مرتمية على طاولة بيضاء في غرفة بيضاء ٠ وامتلكت القرصان رغبة ضارية في التدخين ، ولم يجد في جيوبه أي سيجارة فانحنى وتناول باصابع ترتجف خجلا نصف سيجارة ملقاة على الارض،وتلقفتها شفتاه بكثير من الحنين ٠ وعب الدخان بنهم شديد ثم تنهد بارتياح ولكنه بعد قليل شعر بضعف مباغت ، وفقد توازنه ولم تستطع قدماه حمل جسمه فانهار على الارض ، وتجمع الناس حوله بسرعة متسائلين : هل هو سكران ؟ هل هو ميت ؟

وانطلقت السيارة البيضاء بسرعة تخترق الشوارع ، وبوقها يرسل صراخا حادا ، تناهى الى مسمع القرصان الغـــارق في الغيبوبة وكأنه صفير قطار موشـــكا على الرحيل ٠

٢ ـ المهرج

اصمتي ايتها المرأة السوداء ، فاغنيتك المجروحة هشمت وردة من زجاج مضيء كانت تحيا في قلب الامير٠ وتهامس الجند والخـدم والجواري والندماء : مولانا الامير حزين ٠

وكان المهرج جالسا على مقعد خشبي في حديقـة القصر يرقب الرماد المنهمر من فم السماء ٠ وعندمـا مثل بين يدي الامير ، جثا على ركبتيه ، واحنى رأسه ، وانتظر صامتا ٠

وتكلم الامير : اضحكني او اقطع رأسك ٠

وكان المهرج في تلك اللحظة كئيبا ، وكلماته كلها امتلكها امس ناء ٠ فقال : كان يعيش في الايام القديمة قرصان له سفينة ورجال وحبيبة ٠

فتجهم وجه الامير ، وتابع المهرج قائـلا : آه يا مولاي ٠٠ لقد اندثر الماضي ، واصبح القرصان مهرجا٠

قال الامير : سئمتك ٠ سيقطع رأسك ٠

وتهامس الجند والخـدم والجواري والنـدماء : سيقطع رأس المهرج ٠

وتخيل المهـرج سفينته ذات الاشرعة البيضـــاء

تمخر البحار ، ورجاله يلوحون بسيوفهم ويقهقهون ، وحبيبته رندا تمشط شعرها الاسود تحت الشمس ، ثم تخيل سيفا يهوي على عنقه ، ويطيح برأسه الذي سيتدحرج على البلاط اللامع • وحينئذ انتحب المهرج كامرأة هرمة ، وبللت دموعه وجهه المتجعد • واستولت الدهشة على الامير ثم اخذ يضحك وقال : احسنت •• يا لك من ممثل قدير •

وتهامس الجنود والخدم والجواري والندماء : لن يقطع رأس المهرج •

وعاد المهرج الى حديقة القصر ، وهنالك وجد اخت الامير ، ترنو الى نجوم السماء ، وكانت فتاة جميلة ، ذات شعر اسود متناثر باهمال على كتفيها • قالت متسائلة : أضحك اخي ؟

قال المهرج : لقد ضحك مولاي الامير •

قالت الاميرة : الدموع في العينين اجمل من الوجه الضاحك •

قال المهرج : المفجع ان يبكي القلب بعينين جافتين•

قالت الاميرة : أنا لم أغادر القصر ، لم أعرف العالم بعد •

فاجتاحت المهرج موجة عارمة من المشاعر الدافئة، واستعاد فتوته الهاربة دفعة واحدة ، واجاب بحرارة : الناس خارج القصر يجوعون ، واحيانا ينتزعون قلوبهم من صدورهم ويبيعونها ويشترون بثمنها خبزا •

قالت الاميرة بدهشة : اوه اوه •

قال المهرج : ويبكون بمرارة عندما لاينهمر المطر •

قالت الاميرة : الا يعرفون الفرح ·

قال المهرج : يولد الفرح فقط عنـــدما يتلاقى جسدان متالفان ، او عندما يجتمع بضعة اصـــدقاء ويتحدثون عن التعاسة والموت والعمل اليـومي ، او عندما ينام البشر ويحلمون ·

قالت الاميرة مبتهجة : لنهرب ونجوب العالم ·

قال المهرج : العالم كبير جدا وسنموت قبل ان نعرفه كله ·

قالت الاميرة باصرار : لنهرب ·

وخيل الى المهرج انه يسمع ضجيج المدن المكتظة بالبشر ، فقال : سأهرب وحدي ·

قالت الاميرة بحزن : سيقتلك حراس القصر ·

وتمكن المهرج من الافلات من القصر دون ان يلمحه اي حارس · وثمل برؤية النجوم والليل الصامت وانوار المدن · واحس وهو يعدو بانه قد استرجع سفينته ورجاله وحبيبته رندا ·· غير ان وهمه لم يعش سوى لحظات ثم توارى ، وانطفأت غبطته · وادرك مرة ثانية انه سيظل حتى الموت وحيدا كغراب هرم · وتوقف عن السير مكتئبا ، والصق ظهره بجذع شجرة · وتذكر يدا صغيرا حسرت ثوبا ازرق عن فخذين ابيضين ، وانتابه خوف مفاجيء ، وايقن بانه قد يتحول بعد قليل الى سرب جراد جائع ·· سيمحو اخضرار العالم ·

٣ ـ سقوط الرجل الشرير

ما الذي سيحدث بعد دقائق ؟ نحن نحيا في عالم غامض ·· قد نضحك ونبكي ونموت في لحظة واحدة ·

القمر رابض فوقنا ، لا يهرب · وجهـه شاحب قليلا ·· ينتظر رؤية الدم الذي سيهرق ·· ما الذي سيحدث ؟ بلدتنا صغيرة وديعة ، يعيش أهلها بـلا اسئلة ، ولقد انقض عليها رجل شرير مجهول · وها هو موثق بحبال غليظة ·

خمسة رجال قبضوا عليه بعد ان طاردوه طويلا · نحن ننتظر ·· ضوء القمر يرتعش وينتظر ·· وارض الشارع تنتظر ايضا ·· ما الذي سيحدث ؟

خمسة رجال ·· الحقد زرع ازهاره في قلوبهم ، ويتالق في اعينهم فولاذ السيوف القديمة ، نحن نسمع اصوات غضبهم :

ـ احرق منزلي ·· لم يقتل زوجتي ·· تركهـا خلفه لتعذبني رؤية جسدها المدنس ·

ـ فقير انا فقير ·· املك فقط كلبا وديعا ·· لا ينبح ولا يعض احدا ويحب كل الناس ·· لماذا حطم رأسه بحجر ؟

ـ ابي رجل هرم يحب اشجار الزيتون ·· ومن غصن شجرة الزيتون تدلى مشنوقا ·· ابي أحب أشجار الزيتون ·

ـ طفلي صغير لم يتكلم بعد ·· كان جميلا ·· ولكم كان قبيحا وبشعا لحظة رأيته مذبوح العنق ·

ـ احرق كتبي وها أنذا بلا كتب ·· كجثة طافية علىوجه نهر بطيء الجريان ·

ما الذي سيحدث ؟ يا الهي يا الهي ·

خمسة رجال ·· بتر احدهم الحبل المشدود حول الرجل الشرير ·· ما الذي سيحدث ؟

وقف الرجل الشرير دون سلاح وسط خمسة رجال ، اصابعهم تقبض بعنف على مقابض خناجر طويلة النصل · ارحل يا ضوء القمر ·· لا نريد ان نبصر ·· ولكن اعيننا تحملق ·· وارجلنا تأبى الهرب ·· شرير انت يا قمر ·· شرير ··

قال احد الرجال : لا تطعنوا قلبه ·

وهجمت الخناجر وطعنت الرجل الشرير في آن واحد ، ثم تراجعت بشكل خاطف منسحبة من اللحم · وتاوه الرجل الشرير متألما وتدفق الدم من خمسة ثقوب ·

الخناجر تمزق الهواء واللحم · يترنح الرجل الشرير ولا يسقط ·· اخجلي ياذئابا في اعماقنا ·· لا تعوي فرحة بالدم ·· سيقبل الموت ·

٤ ـ ختام كل الحكايا

مصباح الشارع أصفر ، والقمر فوق الشارع ، وجسد الشرير ممزق ملقى وحيدا على الاسفلت بعد ان تفوق المتفرجون ، ولم يبق أحد · وكانت رندا امرأة شديدة الحنو ، اقبلت بلهفة وحزن ، وانحنت والصقت شفتيها بفم الرجل المدمى ، ولم يشعر بلظى لحمها ·· وحاول ان يفتح عينيه غير ان الثلج تساقط فوقه ، وسرى الصقيع في أوصاله · واستطاع بصعوبة ان يتابط

ذراع رندا ، وانطلقا معا وتلاشيا في فراغ أبيض صامت.
ولم تقرع في تلك اللحظة اي اجراس حزينة ، واضمحل القرصان والمهرج والقاتل ، ولم يبق سوى جثة باردة ، اقترب منها احد الكلاب ، ودار حولها عدة مرات ثم ابتدأ يلعق الدم الاحمر .

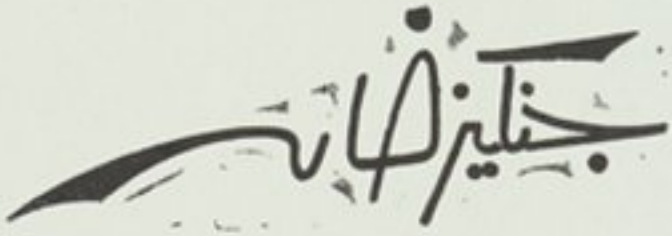

عندما ولد جنكيز خان ، لم يكن ينتظر رأسه تاج من ذهب ، فقد كان والده فقيرا ، لا يحترمه احد . وكانت امه امرأة كهلة ، حزينة العينين ، لم تضحك مرة واحدة من القلب .

وقضى جنكيز خان طفولته في الازقة ، يلعب بالطين والحجارة . لكنه عندما أصبح شابا ، توج ملكا لأن الجوع عذبه طويلا ، ولم يهزم حبه للشعر الشبيه بضحكة طفل . وكان دائم الابتسام على الرغم من ان رغبة في البكاء تداهمه احيانا دون سبب . ولقد احب جنكيز خان الصبية الوديعة التي اختيرت لكي تكون اما لاطفال لم يأتوا بعد . وعندما تلاقى جسداهما لاول مرة في ليلة من الليالي ، تشبثت الصبية به ، وشدته اليها بضراوة ، واحس جنكيز خان ان جسدها حيوان له آلاف الافواه والانياب والمخالب .

وغادر جنكيز خان مخدعه في الصباح ، متجهم الوجه بينما الصبية مرتمية على السرير ، وقد اغمد في صدرها خنجر ذو نصل طويل .

وظل جنكيز خان صامتا مكتئبا طوال ايام كثيرة ، يتجول في ارجاء قصره كشبح قاتم بلا رأس . وكان

وزراؤه واعوانه يرقبونه بقلق وحيرة ، فقـــد اعتادوا الخضوع لمشيئة من اختاروه حاكما عليهم ·

ووقف جنكيز خان ذات يوم بين وزرائه واعوانه· وكان كشجرة مقتلعة من ترابها ، ومثبتة في الفراغ بشكل سحري · وتكلم مصدرا اوامره الى قواد جيوشه بالمسير والانطلاق عبر العالم وهدم المدائن المنتشرة على وجـه الارض ·

وكان ثمة مدينة صغيرة بلا أسوار ، أهلها يؤمنون ان الله موجود في كل مكان ، ومقتنعون ان الله خلق من الملائكة عددا لا يحصى ، والملائكة من نور ، ولهم أجنحة بيضاء ، ولا تراهم أعين البشر · ويخضع كل شخص حي لمراقبة اثنين من الملائكة ، يسجلان حسناته ومساوئه· وعندما يموت الشخص ، توضع المساوىء والحسنات في كفتي ميزان ، والكفة الراجحـة تقود الشخص الى جهنم او الى الجنة · وجهنم نار محرقة تعذب دون موت ، والجنة مكان جميل مكتظ بالاشجار الخضراء والنساء الجميلات وانهر العسل والخمر واللبن ·

وكان اهل المدينة مغرمين بالنراجيل ، وتهتـز رؤوسهم بنشوة لحظة تضرب يد ما على جلد دربكة ·

وكانوا يركبون الســـيارات لانهم لم يكتشفوا الخيول بعد ، وكانت الخيول ما تزال متوحشة تعـدو عبر البراري ·

ولم تجد جيوش جنكيز خان صعوبة كبرى في اقتحام المدينة · وقتلت بضعة آلاف من السكان ·

وتطلع جنكيز خان بشغف الى جثث المشنوقين وكأنها نجوم متألقة ·

وفتشت المنازل ، وجمع الاطفال ثم ذبحوا على ضفة نهر ، مياهه فقدت لونها ·

ومرت اشهر عديدة حافلة بالضجيج والمرح والصراخ ، ثم ابتدأ الهدوء يهيمن شيئا فشيئا ، واستعاد أهل المدينة حبهم للنراجيل والدربكة والحديث عن الفضائح وعن الله الموجود في كل مكان ·

وبدأ الضجر يستولي على جنكيز خان ، وتغلغل في لحمه كمرض مخيف وغامض ، وقد دفعه ذات يوم لان ينبذ تاجه وملابسه ، ويتسلل متنكرا ، ويطوف المدينة كثعبان يفتش عن لحم يصطدم به · وحين اتعبه التجوال دلف الى داخل مقهى ، رواده مزيج من الشبان والفتيات ، وطلب فنجان قهوة · وكان ثمة اغنية تصعد من صندوق الموسيقى القابع في ركن من اركان المقهى ·

واخذ جنكيز خان يحتسي القهوة ، ويدخن بينما كان المغني رجلا يعول بصوت خشن جريح :

سأموت اذ تركتني

وطفق جنكيز خان ينفث دخان سيجارته ، ويتأمل بفضول فتاة جميلة ، قريبة منه · وكانت تهز قدمها بانسجام مع ايقاع الموسيقى الحارة ، وكانت يداها مرتميتين على سطح الطاولة الحديدية ، وكانتا صغيرتين شديدتي البياض ·

وحملق جنكيز خان في يديه الكبيرتين الخشنتين ،

وانهمر أسى غامض في دمه ، واشتد حنينه لسماع قصائد ينشدها صوت مبحوح اجش · واحس ان قلبه عصفور بلا جناحين ، يتوق لان يطير راحلا نحو البيت الذي ولد فيه ، وكان بيتا جدرانه من تراب ، وتنتصب شجرة نارنج في باحته · وتنهد جنكيز خان بارتياح ، وشعر شيئا فشيئا بأن طوفانا من دماء الاطفال ينأى عنه ، وتلاشت جثث المشنوقين من مخيلته ·

وغادر المقهى وهو متأكد من ان جنكيز خان السفاح مات نهائيا ، ودفن في مكان قصي مجهول ، وستظل جيوشه تنتظره دون جدوى ·

وانتظرت جيوشه ، وبحثت عنه غير انه اختبأ بمهارة فلم تعثر عليه ، واضطرت اخيرا الى الرحيل · وراقبها جنكيز خان ببهجة بينما كان الغبار يتصاعد خلفها ثم انطلق عبر الشوارع ، وكأنه طفل ولد قبل لحظات ، فهو سيكون في الايام المقبلة رجلا ما مجهولا ، يحيا في مدينة صغيرة · وسيجد عملا · وسيقرأ الشعر في الاماسي · وسيحلم ، ويحب فتاة كطفلة كبيرة · وستكون محبة للياسمين والصيف ، وسيكون جسدها ضحكة عذبة ، وسيعيشان معا ، وستنجب اطفالا ، سيحبهم لأنهم اولادها · وسيساوم البائعين بحماس حين يريد شراء حاجيات البيت ·

وكف جنكيز خان عن التخيل اذ استرعى انتباهه حشد من الناس ، يتزاحمون حول باب احد البيوت ، فاندس بينهم ، فاذا بامرأة تعول وتولول وهي تشير بيدها الى طفل صغير ملقى على عتبة الباب ·

وامعن جنكيز خان النظر الى الطفل الميت فوجد ان وجهه واطرافه قد قرضتها الجرذان ، فتراجع مذعورا ، وافلت من الزحام وهو يكبت رغبة ضارية في البكاء ممتزجة بغضب جارف اهوج · واندفع خارج المدينة فقد رجع جنكيز خان الى الحياة ·

وتعالى هتاف الفرح من جنوده حين ابصروه قادما · وارتدى جنكيز خان دروعه ، ووضع على رأسه خوذة من فولاذ رامقا بهزء تاجه الذهبي · ولوح بسيفه آمرا جيوشه بالمسير الى أمام ·

وعندما كان يصغي الى ضجيج رجاله الشبيه باعصار غاضب ، خيل اليه انه يبصر طوفان فولاذ مصهور ، يجتاح الارض كلها ، وحينئذ ابتسم بتشف ·

وكانت الجنة ما تزال مكانا جميلا للغاية مكتظا بالاشجار الخضراء والنساء الجميلات وانهر العسل والخمر واللبن ·

الصافير

كان في سالف الزمان طفلة اسمها ندى ، وجهها ابيض عذب • وكانت في بعض الاحيـــان تتخلى عن اساها ، وتستسلم لفرح خفي يجعلها تضحك مبتهجة فتنحدر النجوم من اعلى ، وتختبيء في شعرها الاسود المديد •

ولقد قعـــدت في يوم من الايام على الارض ، واسندت ظهرها الى حائط من الاسمنت بينما كانت قدماها مطروحتين امامها كجثتين هامدتين ، وطفقت تبكي وهي تغطي وجهها براحتيها فنزل من السمـاء رجل يرتدي ملابس بيضاء ، ووقف قبالتها ، ورمقها بحنان ، ثم قال لها :

ـ مابك ؟

فلم تفه ندى بكلمة ، انما ازداد بكاؤها • فقال لها الرجل بصوت رقيق :

ـ لماذا تبكين ؟

فكفت ندى عن النحيب ، ولكنها ظلت صامتة ، فتطلع الرجل الى ثيابها الرثة ثم قال متسائلا :

ـ هل تريدين ثيابا جديدة ؟

فأبعدت ندى يديها عن وجهها المبتل بالدموع ،

وقالت بنزق :

ـ لا اريد ثيابا ·

فتأملها الرجل مليا وقال :

ـ اين امك ؟

ـ ماتت ·

ـ اين هي الآن ؟

ـ في القبر ·

ـ وابوك ؟

ـ سافر ولم يرجع ·

ـ اليس لك بيت ؟

فانتحبت ندى من جديد ، وسألها الرجل ثانية بحنو :

ـ لماذا تبكين ؟

فأشارت ندى دونما كلمة الى قدميها المشلولتين ، فجلس الرجل ذو الثياب البيضاء القرفصاء ولمس بيديه قدميها ، فدبت فيهما الحياة في الحال ، وخفق الدم في شرايينهما حارا عنيفا ·

وساعد الرجل الطفلة على النهوض ، وقال لها وهو يربت على شعرها :

ـ هيا امشي ·

فأطاعته ندى ، وسارت في البداية بحذر وتوجس وارتباك ، ثم ما لبثت ان احست انها سيدة قدميها · وحين التفتت وهمت بشكر الرجل ذي الثياب البيضاء فوجئت باختفائه ، فوقفت هنيهة حائرة ، تغمرها الغبطة

الممتزجة بخوف ضئيل غامض ، ثم اخذت تعدو كغزالة سجنت حينا من الوقت ٠

وغنت الارض تحت قدميها ، ولم تتوقف ندى عن الركض الا عندما تعبت ، فارتمت تحت اغصان احدى الاشجار ، واستلقت على ظهرها فوق التراب والاعشاب الخضراء ، ولهثت سعيدة ٠ ووجدت ندى نفسها بعد قليل مجبرة على مراقبة عصافير تطير متنقلة من شجرة الى اخرى ، فقطبت جبينها على حين غرة ثم اجهشت بالبكاء ٠

ولقد انتحبت ندى طويلا غير ان الرجل الـذي يرتدي ملابس بيضـاء لم يحضر ، وظلت العصافـير ترفرف بأجنحتها عبر السماء الزرقاء ٠

المحتوى

	الصفحة
١ ـ ثلج آخر الليل	٥
٢ ـ الباب القديم	١٩
٣ ـ الجريمة	٢٥
٤ ـ شمس صغيرة	٣٩
٥ ـ الوجه الأول	٥١
٦ ـ سيرحل الدخان	٦١
٧ ـ النهر	٦٧
٨ ـ ربيع في الرماد	٧٧
٩ ـ القرصان	٨٧
١٠ ـ جنكيز خان	١٠١
١١ ـ العصافير	١٠٩

الفن الحديث العالمي
للطباعة والنشر والتوزيع

ثمن النسخة ١١٠ ق٠س أو مايعادلها

COLUMBIA UNIVERSITY
0026813386

956.9
Sy27
6

APR 13 1964 OCT 1 1964

956.9 - Sy27